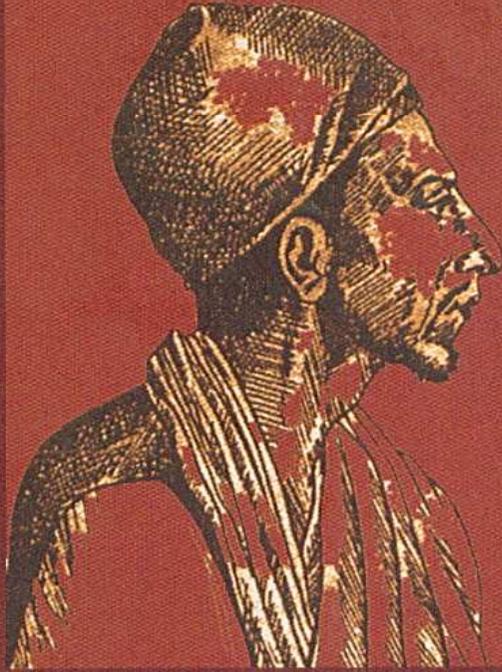




المعلم يعقوب

بين الأسطورة و الحقيقة



د. أحمد حسين الصاوي

رفع بعض الباحثين "المعلم" يعقوب إلى مصاف الأبطال الوطنيين، وفي هذا الكتاب "المعلم يعقوب بين الأسطورة والحقيقة" تختلف الصورة تمامًا. يتناول الكتاب سيرة "الجنرال" يعقوب منذ نشأته، معتمداً على عدد وفير من المراجع والوثائق ومركزاً على صلته بالحملة الفرنسية، حيث اختار منذ البداية لنفسه نهجاً واضحاً لم يجد عنه، إذ ربط نفسه بالحملة ومصالحها واختار أن يرحل مع قواتها بعد أن تهاوت أحلام قادتها ومُنبت مشروعاتهم في استعمار مصر بالفشل.

الغلاف: د. خالد سرور



www.gocp.gov.eg
www.qatreinada.com.eg
www.althaqafahalgadidah.com.eg

الشمس - جندمان

سلسلة ذاكرة الوطن

تتمثلها

الهيئة العامة لتصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة

د. أحمد مجاهد

أمين عام النشر

سعد عبد الرحمن

الإشراف العام

جمال العسكري

الإشراف الفني

د. خالد سرور

• المعلم يعقوب

بين الأسطورة والحقيقة

• د. أحمد حسين الصاوي

الطبعة الثانية

الهيئة العامة لتصور الثقافة

القاهرة 2009 م

44 نص، 135 × 19,5 سم

• الترخيص: د. خالد سرور

• رقم الإيداع: 2009/27892

• الترخيم الدولي: 0-000000-000000-000000

• المراسلات:

باسم / مدير التحرير

على العنوان التالي: 116 شارع امين

سليم قنطرة السويس

القاهرة - رقم بريدى 1551

ت: 2794789 (داخلي، 180)

• الطباعة والتنظيد:

شركة لامل للطباعة والنشر

ب: 24940396

2

سلسلة لغنى لنشر كتب مختارة لتعبير عن تاريخ مصر الثقافي والوجداني

• هيئة التحرير •

رئيس التحرير

أسامة عسيفي

مدير التحرير

طسارق هاشم

سكرتير التحرير

محمد الفخراني

المعلم يعقوب

بين الأسطورة والحقيقة

د. أحمد حسين الصاوي

وزارة الثقافة



المعلم يعقوب

بين الأسطورة والحقيقة

تقديم

الكبير د. أحمد حسين الصاوي . . والدي ألفد في منتصف الثمانينات للرد على تلك المقولات الزائفة خاصة أن الرجل اعتمد على كثير من الوثائق الإنجليزية والفرنسية التي كشفت دوره منذ ما قبل الاحتلال بل وتعاونته مع المماليك ضد أبناء جلدته المصريين من مسلمين وأقباط، موضحا موقف الكنيسة المصرية الوطني من الاحتلال الفرنسي، وموقفها منه شخصيا منذ تعاونه مع المماليك وحتى تعاونه مع الفرنسيين وخروجه معهم مهاجرا إلى فرنسا بطلب شخصي منه حتى لا يفتك به أبناء وطنه جزاء خيانتهم لهم.

ورغم أهمية كتاب الدكتور الصاوي إلا أنه لم يستطع أن ينشره بعد تأليفه، وطبع طبعة محدودة نفدت في حينها، وأصبح الحصول على نسخة منه أمرا مستحيلا، ولقد أعاد الراحل الكبير رجاء النقاش الاعتبار للكاتب وكتابه عندما اعتمد عليه في تنفيذ رأي ليس عرض عن المعلم يعقوب . . ونتيجة لما كتبه رجاء النقاش عن كتاب الدكتور الصاوي بدأ المثقفون يبحثون عنه في المكتبات بلا جدوى. واقترحت على عمنا رجاء النقاش أن يعيد نشره في سلسلة ذاكرة الكتابة التي تصدر عن هيئة قصور الثقافة وكان يرأس تحريرها . فقال لي ضاحكا يرحمه الله _إنها في دائرة تخصص سلسلة ذاكرة الوطن . ومنذ هذه المكالمة وأنا أعتبر أن إعادة إصدار هذا الكتاب إحدى وصايا أستاذنا رجاء النقاش قبل رحيله مباشرة فضلا عن كونه إعادة اعتبار لأستاذ الأساتذة د. أحمد حسين الصاوي الذي لم يعد يذكره أحد . . رغم أنه رائد من رواد الإعلام

رغم إجماع مؤرخي التاريخ المصري الحديث على "خيانتته" لتعاونه مع المحتل، ورغم أن وثائق المحتل نفسه قد كشفت دوره في التآمر على المقاومة الشعبية خلال ثورتى القاهرة الأولى والثانية. إلا أن "المعلم يعقوب" قائد ما سمي بـ"الفيلق القبطي" التابع لجيش نابليون مازال محور جدل ونقاش . . . فالبعض حاول ويحاول أن يصوره للأجيال الجديدة كرائد للتنوير . وكثائر على الظلم العثماني والمملوكي، وأنه صاحب رؤية ونظرية ترى إمكانية التحالف مع الفرنسيين لإدخال الديمقراطية والعدالة في المجتمع العربي . . . ورفع الظلم عن كاهل الإنسان المصري !!! مع أن الحقيقة غير ذلك تماما، وفي محاولة لوضع الأمور في نصابها الحقيقي وإظهار الحقيقة حفاظا على ذاكرتنا من التشويش الذي تستهدفه جهات عديدة لأغراض ليست وطنية . . . نعيد نشر هذا الكتاب للعالم الراحل

الكنيسة للمعلم يعقوب من تناول لأنه خرج عن تعاليم الكنيسة، واتخذ له "جارية" غير زوجته تشبها بالمماليك . . . فضلا عن الشكاوي التي كانت ترد إلى الكنيسة من رعاياها الأقباط في الصعيد من سوء معاملته . . . يتفرد أيضا 'روفيله' بموقف الكنيسة الوطني الواضح منه بعد تشكيله للفيلق القبطي بأوامر من نابليون، واعتبار الكنيسة أن ذلك الموقف تعاون مع ممثل "الكاثوليكية" - نابليون والذي ترى الكنيسة أنه خروج واضح عن تعاليمها. الكتاب الذي بين أيدينا يناقش بشكل علمي يعتمد على الوثائق العربية والأجنبية ليحسم بشكل لا يقبل الجدل حقيقة 'المعلم يعقوب' الذي يريد البعض الآن أن ينصبه "ثانرا وتنويريا" في محاولة لطمس الذاكرة الوطنية، وإشاعة مفاهيم غير وطنية منها أن التعاون مع العدو ممكنا بل إن "الخيانة" نفسها يمكن أن تكون وجهة نظر .

أسامة عفيضي

ومؤسس لأغلب أقسام الإعلام في الوطن العربي . فضلا عن دوره في التأريخ للطباعة والصحافة . . . وترجع أهمية كتاب الدكتور الصاوي 'المعلم يعقوب بين الأسطورة والحقيقة' إلى أن الرجل أراد أن يقدم بشكل علمي الحقائق كما هي ، وسعى لتمحيص الآراء المختلفة من خلال الوثائق والمراجع والشهادات وخرج بمجموعة من الحقائق الهامة التي أرى أن أهمها توضيح موقف الكنيسة القبطية المصرية الوطني من الاحتلال الفرنسي ، وأن تسمية جيش يعقوب باسم 'الفيلق القبطي' كان الغرض منه إثارة الفتنة الطائفية في حين أن الكتاب يكشف لنا بالوثائق أن هذا الفيلق كان يضم مجرمين سابقين من المسلمين والمرترقة من خارج البلاد من أرمن وأتراك ، وأنه ضم على حد تعبير الجبرتي الذعر والحرافيش من المنسر إلى جانب شراز النصرى الوافدين ، ولفظ 'النصرى' في الأدبيات التاريخية يعني 'المسيحيين غير المصريين' فالمسيحيين المصريين كان يطلق عليهم مصطلح 'الأقباط' ، بل إن الدكتور الصاوي يكشف لنا في كتابه الهام عن دور 'المعلم يعقوب' في العمل مع المماليك في جمع الضرائب الجزية من الفلاحين الأقباط في الصعيد ، وغلظته وشراسته في التعامل مع الفلاحين المصريين سواء كانوا مسلمين أم أقباط ، ولقد اعتمد الدكتور الصاوي على مرجع قبطي هام هو 'تاريخ الأمة القبطية' ليعقوب نخلة روفيله الذي أفرد فصلا خاصا لعلاقة 'المعلم يعقوب' بالمماليك ثم الفرنسيين، ولقد تفرد 'روفيله' بخبر حرمان

في بناء الوطن والعمل على استقلاله ورفعته وتقدمه ، وبالقدر نفسه
نلفظ منهم كل من انحرف عن الطريق أو أساء إلى قومه وبلادته .

د/أحمد حسين الصاوي

مقدمة

هذه دراسة لصفحة من تاريخ مصر ، نعرضها بكل موضوعية
وبنظرة علمية مجردة تتخطى حدود أية حساسيات ، ونرجو أن يتقبلها
القارئ برحابة صدر ودون ما حساسيات كذلك . فهدف الدراسة
هو جلاء الحقيقة ، والحقيقة وحدها . ولا فرق أمام الحقيقة وأمام
التاريخ بين مسلم ومسيحي .

لقد كانت الحملة الفرنسية على مصر غزواً له سماته المتميزة . وإذا
كان الفرنسيون قد فشلوا في امتلاك مصر أو في إعادة تشكيل هيكلها
السياسي والاجتماعي، فالذي لاشك فيه أن حكمهم لمصر ثلاث سنوات
كان في حد ذاته هزة عنيفة أحدثت نتائج بعيدة المدى قوية الأثر في حياة
مصر وبنيتها السياسية والاجتماعية . ولعل من أسوأ نتائج هذه الحملة
ما أوشكت أن تحدثه من شروخ في بنية الأمة وروحيتها .

فتحت مصر بعد الحملة صفحة جديدة في تاريخها واستأنفت
مسيرتها بما وعته من دروس ، أمة واحدة . وبنى الشعب المصري
بمسلميه وأقباطه دولته الحديثة . ونحن أبناء هذا العصر نفخر جميعاً ونعتز
بأبطالنا وأفذاذنا من هؤلاء وأولئك ، الذين أسهموا بكل إخلاص وتجرد

أحكامهم بين الأبيض الناصع والأسود القاتم عبر مختلف درجات الرمادية ، واجبه أن يكون حكما عدلا ، فيبحث ويناقش ويحلل ويستنتج بعقل متجرد ومنطق واضح ومنهج سليم . وليس هذا بالأمر الهين وإنما هو مهمة ثقيلة محفوفة باخاذير حافلة بالمشقة،فضلا عما تتسم به أحيانا من حساسيات . وسوف أحاول في هذه الدراسة بمناقشة كل ما كتب عن الجنرال يعقوب ، وما أمكن العثور عليه من وثائق تتصل بحياته ، وباستقراء الظروف والملابسات التي نشأ وعاش في ظلها والأحداث التي تفاعل معها ، أن أستخلص ملامح صورته الحقيقية دون ما مبالغة أو تضخيم ، ودون ما « رتوش » أو ظلال . وهو قبل كل شيء مواطن مصرى برز على مسرح الأحداث خلال فترة بالغة الأهمية في تاريخ مصر الحديث . ولا يكاد الجيل الخالي من المواطنين يعلم عنه شيئا . والقلة القليلة التي تعلم تختلف أو تتخبط في الحكم عليه ، تبعاً لما تأثرت به من كتابات تتراوح بين ذروة الإشادة وحضيض التجريم .

تعهد

المعلم يعقوب أو الجنرال يعقوب ... شخصية مصرية تصلح لبناء قصة درامية مثيرة . كتب عنه عدد من المؤرخين ، ولكنهم على قلتهم اختلفوا فيه أيما اختلاف : منهم من هاجمه بعنف وضراوة واعتبره خائناً لقومه وبلادده ، مثل مؤرخنا عبد الرحمن الجبرتي . ومنهم من اكتفى بأن سجل نشأته وسرد مختلف مراحل حياته ، وإن لم يخل ذلك من محاولة تصويره في صورة زعيم مرموق من زعماء طائفته ، مثل بعض مؤرخي الأقباط . ومنهم كذلك من وقف موقف المؤرخ المدقق فناقش في اجتهاد ملحوظ بعض الوثائق التي نسبت إلى يعقوب من الأمور الخطيرة في آخر أيام حياته، ما لم يعرف عنه في حينه ، مثل أستاذنا شفيق غربال . ثم جاء أخيراً من مضى خطوة أبعد ، فرفع يعقوب إلى مصاف الأبطال الوطنيين مثل الدكتور لويس عوض .

إن اختلاف الرأي التاريخي حول شخصية عامة لهو من الأمور الشائعة التي ألفناها ، سواء فيما يتصل بشخصيات تاريخنا أو تاريخ غيرنا . فكيف نكتنه الحثيفة ؟ إن واجب المؤرخ الصادق بعد أن يلمس مدى تفرق السيل بمن سبقه من المؤرخين في هذا الصدد ، وتفاوت

أقباط مصر

كان أقباط مصر إبان العصر العثماني يمثلون أقلية متميزة تعيش في نطاق أوضاع وتقاليد شكلية خاصة مثل التزبي بزى معين ، أو اتخاذ لون معين للعمامة . وقد رسخت هذه الشكليات عبر القرون منذ أصبحت مصر قفرا إسلاميا ، وتأكدت بعد أن صارت مصر ولاية عثمانية تخضع روحيا وزمينا لسلطان خليفة المسلمين في استانبول ، وبحكم استقرارها نظام فريد يقوم على لون من توازن القوى بين الولاى والمماليك وقوات الجيش العثماني (الأنكشارية) .

ولم يكن فرض تقاليد معينة أو أوضاع خاصة على أقلية من الأقليات — دون ما دخول فى التفصيلات — بدعا أو أمرا غير مألوف فى تلك الأيام . فقد كان ذلك سمة من سمات مختلف الأنظمة التى حكمت مجتمعات العصور الوسطى شرقا وغربا ، فى ديار الإسلام وفى غير ديار الإسلام . وقد اتسع نطاق تلك الأوضاع والتقاليد ليضم مع الأقباط نصارى الشام والأروام (اليونانيين) بجماع المسيحية فى كل .

ولم تعش طائفة الأقباط بطبيعة الحال منعزلة أو مقطوعة الصلة بسائر طوائف المجتمع المصرى وطبقاته . فبغض النظر عن تلك الأوضاع

والتقاليد الخاصة التى أملتيا الاعتبار « الإسلامية » و « العثمانية » ، فقد عاش الأقباط أفرادا وجماعات جنبا إلى جنب مع مواطنهم المسلمين فى وئام ، يمارسون مثلهم شتى الأنشطة من زراعة وتجارة وحرف مختلفة ويشاركونهم عديدا من المناسبات الاجتماعية وبخاصة تلك المتوارثة من قبل دخول المسيحية والإسلام إلى مصر ، متمثلة فى الأعياد والاحتفالات المصرية الأصيلة كوفاء النيل وشم النسيم . بل بلغ الأمر فى هذا الصدد أن اختلطت أحيانا بعض المناسبات فارتدت ثيابا إسلامية مسيحية مشتركة فوق ثيابها المصرية القديمة ، وشارك فيها الجميع فى حماس وشعور عميق بالانتماء إلى تراث مشترك .

ومن الامانة التاريخية هنا أن نشير إلى أن هذا التعايش السلمى عميق الجذور تعرض أحيانا قليلة إلى بعض الشروخ السطحية ، نتيجة احتكاكات طفيفة أملاها الجهل والتعصب . وهى حالات نادرة محدودة النطاق ، ولا يمكن أن تقاس إلى مثيلاتها فى أوروبا أو آسيا فى تلك الأيام .

وبالإضافة إلى ذلك فقد توارث الأقباط حرفا ومهنا معينة حدقوها وبرعوا فيها وتعمقوا أسرارها ، وأصبحت حكرا لهم ووفقا عليهم ، لم يحاول مواطنوهم المسلمون أن يشاركونهم إياها ولا أن ينافسوهم فى مجالاتها . وكان على رأس ما حدقه الأقباط وبرعوا فيه مهنة الصيرفة وما يتصل بها من حساب الأموال عدداً وجباية وتحويلاً وخصماً وإضافة ... الخ . ومن ثم اعتمد عليهم الأفراد والجماعات فى عمليات الصيرفة والحساب اعتيادا تاما . فلكل تاجر أو مملوك أو ناظر وقف « محاسب » قبضى « يمسك دفاتر » الدخل والمنصرف ويحسب الحق والمستحق . وقبل هؤلاء كان المسئولون من « الكشاف » و « المختسين » و « الملتزمين » يعهدون إلى المحاسبين الأقباط بهذه الأعمال فيما يتصل بالأموال العامة للولاية . وكانت علاقة هؤلاء المحاسبين بمن يعملون لهم هى الأخرى علاقة حميمة تحكمها المصلحة المتبادلة أولا ،

وكان من المنطقي كذلك أن يرحب الفرنسيون بتعاطف الأقباط معهم ، وبخاصة بعد أن لمسوا عدم ترحيب سائر المصريين بهم أو تصديقهم لما أذاعوه من ادعاءات . فأخذوا منذ استقرار الأمر لهم في القاهرة يستعينون بالأقباط لتيسير مهمة قواتهم الزاحفة لإتمام احتلال البلاد ، وللمساعدة الجهاز الإداري على تدبير شؤون الحملة وتحقيق الاستقرار لنظام الحكم والمحكومين على السواء .

وكان من المنطقي أيضا أن يعتز هؤلاء الأقباط ومن ظاهريهم في مرقفتهم من نصارى الشام والأروام بما حققوا من مكانة لدى الحاكم الخدي ، فيحاولوا أن ينزعوا عنهم ثوب المهانة الاجتماعية ، فيتحلوا من تلك القيود الشكالية التي فرضت عليهم قرونا ، ويبالغوا في ذلك أحيانا بما يؤذى مشاعر المسلمين . ويسرد الجبرتي من حوادث شهر شعبان سنة ١٢١٣ (عقب دخول الفرنسيين) « ... ومنها ترفع أسافل النصارى من القبط والشوام والأروام واليهود وركوبهم الخيل وتقلدهم بالسيف بسبب خدمتهم للفرنسيس ومشيمهم الخيلاء وتجاهرهم بفاحش القول واستدلالهم المسلمين ، كل ذلك بما كسبت أيديهم ... » (١)

ولكن يبدو أن الأمر في هذا الصدد قد جاوز حدوده المعقولة ، ففي شهر رمضان التالي ، وهو شهر له مكانته الخاصة في نفوس المسلمين ، حال الفرنسيون دون تدهور العلاقات بين الفريقين بمنع الطوائف المسيحية من تحدى مشاعر المسلمين . ويقول الجبرتي « ثم إن نصارى الشام رجعوا إلى عاداتهم القديمة في لبس العمام السود والزرق وتركوا لبس العمام البيض والشيلان الكشميري الملونة والمشجرات ، وذلك بمنع الفرنسيين لهم من ذلك . ونهبوا أيضا بالمناداة في أول رمضان بأن نصارى البلد يمشون على عاداتهم مع المسلمين أولا ، ولا يتجاهرون بالأكل والشرب في الأسواق ولا يشربون الدخان ولا شيئا من ذلك براءى منهم ، كل ذلك للاستجلاب لخواطر الرعية » (٢) .

وإن كانت لا تفتقر إلى الروام .

وقد جنى المحاسبون الأقباط من مهنتهم أموالا طائلة، وبخاصة من كان منهم يعمل مع كبار « الممولين » أصحاب الإقطاعات الشاسعة والثروات الضخمة والخيرات الوفيرة التي تتيح أوسع الفرص للكسب المشروع وغير المشروع .

وتضخمت ثروات بعض الأقباط فصاروا من كبار الأغنياء المعروفين الذين يكونون مع غيرهم من أغنياء التجار والعلماء ومن إليهم طبقة اجتماعية واحدة ، لها امتيازاتها ومسالحتها ولها نمط حياتها الخاص . فشيئوا مثل غيرهم من الأغنياء أفخم الدور والقصور ، وفرشوها بكل نعال وثياب ، وملكوا العبيد والجواري ، وأحاطوا أنفسهم بالخدم والحشم والخراس وبكل مظاهر الحياة الرغدة المترفة الناعمة .

وبينما كانت القاعدة العريضة من الطائفة القبطية تتعايش مع القاعدة العريضة من المسلمين تعايشا سلميا كاملا في قرى مصر ومدنها ، كان متنوروا الطائفة وأغنياؤها أكثر إحساسا أو حساسية بتفردهم أو اغترابهم من حيث هم أقلية مسيحية صغيرة تعيش وسط مجتمع إسلامي كبير ، وتحكمها قيود وأوضاع اجتماعية خاصة .

الفروسية مع من عمل في خدمتهم من المماليك ، وساعده على ذلك ما اشتهر عنه من نزوع إلى القتال والنزال . وقد حارب يعقوب بالفعل في صف المماليك ضد قوات القبطان حسن باشا التي نزلت إلى مصر لتثبيت الحكم العثماني قبل قدوم الحملة الفرنسية بفترة قصيرة (شكل (١)

ويقول من أرخوا ليعقوب من أبناء طائفته « إن معاصريه منهم أحسوا باختلافه عنهم ، وأثبتوا عليه شذوذه عن ألوهم » (٣) . وقد تبدى ذلك في بعض مظاهر حياته ، فقد خالف أبناء قومه في الزي والحركات ، كما اتخذ له امرأة من غير جنسه بطريقة غير شرعية (كانت سورية من حلب) . ولم يكن رجال الدين راضين عن غروره وخروج تصرفاته معهم ومع الكنيسة عما تنبئ مراعاته من الأصول والتقاليد . وقد نصحه بطريك الأقباط نفسه عدة مرات بالعدول عن خطته وبأن يعيش كسائر إخواته ، ولكنه رفض النصيحة .

هذا هو « المعلم يعقوب » الذي كان في الثالثة والخمسين من عمره عندما غزت الحملة الفرنسية مصر بقيادة الجنرال بونايرت . وقد بلغ شأوا بعيدا في قومه ، فكان من كبار الأثرياء ومن زعماء الطائفة المبرزين في مجتمع القاهرة وأقاليم الصعيد على السواء .

فكيف بدأت حركة التعاون بين القبط والفرنسيس ، وكيف تطورت ؟

يقول جورج ريجو (G. Rigault) في كتابه « الجنرال عبد الله منو » أنه كان على بونايرت وهو يرأس جهاز الحكم في مصر أن يضمن الوجود المادى للجيش الفرنسى . ولكن بما أن الأقدار قد ألقته به إلى بلد غير متحضر ، فلم تكن لديه أية وسيلة يستطيع بها أن يعرف حصيلة الإيرادات أو ينظم جباية الضرائب . ولكن كان أمامه الأقباط . فمن قبل الحملة كان المماليك دائما يعهدون إلى هؤلاء المسيحيين

وينبغى أن نلاحظ أن استعانة الفرنسيين بالأقباط في الأمور المالية بالذات كانت ضرورة حتمتها خبرة هؤلاء الطويلة السابقة ، واحتكارهم لكل المعلومات المتعلقة بهذا الشأن . أى أن إرادة الطرفين التقت عند غاية واحدة هى التعاون بينهما لما فيه مصلحة النظام الجديد .

وقد دعم من هذا التقارب أن الحملة الفرنسية ، شأنها شأن سائر حملات الغزو الاستعماري وموجاته قديما وحديثا وبالرغم مما رفعته من شعارات وما أذاعته من تمويهات ، وجدت في سياسة التفريق بين الطوائف واحتضان الأقليات ما يعينها على تثبيت أقدامها وتحقيق أهدافها .

ولكن المستعمر من ناحية أخرى قد يغرى بالتعاون معه أحيانا بعض ضعاف النفوس أو ضعاف الانتباه من غير أبناء الأقليات ، ممن لا يبغون سوى تحقيق مصالحهم المادية القريبة . وسواء أكانت المبادرة من جانب المستعمر أم من جانب أولئك الوصوليين الانتهازيين فالنتيجة واحدة . وعلى ذلك فلم يكن نصارى مصر وحدهم هم الذين ابتغوا الأمن والجاه والمنعة في كنف الفرنسيين ، وإنما شاركهم في هذا الاتجاه بصورة ما من بقى في مصر من المماليك (المسلمين) وعلى رأسهم مراد بك . لقد ظل مراد ورجاله مثلا يناوشون القوات الفرنسية في الصعيد حتى آثروا في عهد كليبر حقن الدماء والتعاون مع الغزاة مقابل الإبقاء على مغانمهم وإرضاء جشعهم واستمتاعهم بممارسة قدر من السلطان يواصلون به ما اعتادوا عليه من التحكم في رقاب العباد . وكذلك فعل مماليك آخرون ممن شايعوا مراد بك في الصعيد وغير الصعيد من أراضي مصر . كما جهر بتعاونه نفر من قدامى موظفى الحكم العثماني .

ديسيه . وقد هنا القائد الفرنسي على حسن بلائه وقدم إليه سيفاً
تذكاريًا نقشت عليه « معركة عين القوصية - ٢٤ ديسمبر ١٧٩٨ » .
وفي هذا الوقت كانت حدة القتال في الصعيد قد هدأت ، وساعدت
الطبيعة الجغرافية للصعيد من احتوى به من المماليك على أن يجدوا ملاذا
آمنا في كفورهم ونجوعه القابعة في بطون الجبل ، كما عاق ضيق الوادي
المطررد نحو الجنوب أي تقدم فعال للقوات الفرنسية الزاحفة التي اكتفت
بإقامة نقاط عسكرية فيما احتلت من أقاليم . ومن ثم طالت حملة
الصعيد أكثر مما كان متوقعا .

شكل رقم (١)



المماليك والعثمانيين "وأعانوهم بالمال واللوازم" مداراة لهم وفداء لأرواحهم وعطفنا على حركتهم ، فإن يعقوب "كركنك في داره بالدرج الواسع جهة الرويعي ، واستعد استعدادا كبيرا بالسلاح والعسكر المحاربين وتحصن بقلعته التي كان شيدها بعد الواقعة الأولى (أى ثورة القاهرة الأولى أيام بونايرت) ، فكان معظم حرب حسن بك الجداوى (من زعماء المماليك) معه (٦) ."

ويعترف مؤرخو الأقباط بأن يعقوب ومن تحصن معه من أخلاط القبط والشوام والأروام وبعض الفرنسيين قد حارب قوات العثمانيين والمماليك بعد نقض معاهدة العريش . ولنقرأ ما كتبه أحدهم (رؤوف حبيب) نقلا عن عدة مصادر « وكادت نار تلك الثورة أن تفتح القبط بشواظها لولا أن تدارك المعلم يعقوب الأمر بشجاعته المعهودة وحسن دفاعه ، فأظهر في تلك الظروف العصبية مقدرة منقطعة النظير واستهدف لخطر داهم ، وظل رابط الجأش على عسكره وهويث فيهم روح الحماس بعبارة النارية وجرأته الرائعة ، وثبت إلى النهاية أمام حصار عنيف وخصم عنيد لدود حتى تم له النصر » (٧) .

أحمد كليبر ثورة القاهرة مستخدما أبتع أنواع القهر والقمع والإرهاب . ثم فرض على المصريين كثيرا من المغارم عقابا لهم على الثورة . ونظرا لموقف المعلم يعقوب المتميز في أثناء الثورة ، بالإضافة إلى ما ظهر من مواهبه من قبل ، فإن كليبر على حد قول الجبرق « وكَلَّ يعقوب القبطي يفعل في المسلمين ما يشاء » . ويفصل القول في ذلك فيذكر « إتهم (أى الفرنسيين) وكَلُّوا بالفردة العامة وجمع المال يعقوب القبطي وتكفل بذلك وعمل الديوان (أى أقام مكتبا) لذلك بيت البارودي » (٨) .

كان طبيعيا بعد فشل ثورة القاهرة الثانية أن يزيد زهو الأقباط وخيلاؤهم ، وبخاصة من عمل منهم في خدمة الفرنسيين ، وأن يشابعهم

في عهد كليبر

غادر بونايرت مصر فجأة (في أول أغسطس ١٧٩٩) عائدا إلى فرنسا ، وخلفه في القيادة الجنرال كليبر (Kléber) الذي كان يضيّق ببقاء الفرنسيين في مصر ويتطلع للعودة بجيش الشرق إلى بلاده ، بعد أن نيتن من فشل الحملة في تحقيق أغراضها . ومن ثم رحب بالتفاوض مع العثمانيين والإنجليز تمهيدا للجلاء عن مصر ، وإن لم يقدر لهذا الجلاء أن يتحقق في عهده .

وعاد ديسيه من الصعيد ليكون إلى جوار قائده في ظروفه غير المواتية . وكان ثاني اثنين مثلاً كليبر في مفاوضات الصلح مع الجانب العثماني الإنجليزي في ديسمبر عام ١٧٩٩ . ولم تلبث اتفاقية العريش التي أبرمت بين الجانبين في أول عام ١٨٠٠ أن نقضت ، ونشب القتال بين الفرنسيين والعثمانيين ، وقد انتصرت فيه قوات الحملة بقيادة كليبر انتصارا حاسما (موقعة عين شمس - مارس ١٨٠٠) .

ولكى يخفّن كليبر دماء جنوده بعد أن كان العثمانيون قد تغلغلوا في البلاد وأتاروا الجماهير ضد الفرنسيين إثر نقض اتفاقية العريش ، وقع مع مراد بك اتفاقية « سلام وتحالف » (Paix et alliance) وكانت

للفرنسيين ، كما يقول أستاذنا شفيق غربال ، ^(١١) وصحيح أنه ازدهى بنفسه وركبته الخيلاء ، ولكنه انفرد دون بنى قومه بما نسج حول اسمه تلك الأسطورة الدرامية التي اختلفت فيها الآراء .

لقد منحه كليبر رتبة « كولونيل » وجعله على رأس فرقة عسكرية من شباب القبط . فما هي قصة تلك الفرقة أو « الفينق » كما عرفه المؤرخون ؟

يقول مؤرخو الأقباط (نقلا عن جاستون حمصي) ^(١٢) إن المبادرة جاءت من جانب انعم يعقوب الذي « فكر في تأليف فرقة قبطية » . وفتح الفرنسيين في ذلك فوافقوا . ويقولون إنه بعد أن جمع يعقوب شباب هذه الفرقة وكل كليبر أمر تدريبهم إلى ضباط فرنسيين . ويزيدون على ذلك أن يعقوب هو الذي جهز هذا الفينق بالسلاح والميرة على نفقته الخاصة .

ويجاري الأستاذ شفيق غربال كذلك جاستون حمصي فيذكر أن يعقوب « نظم جيشا من الأقباط يخدم في صفوف الفرنسيين ، وكان هذا التنظيم على نفقته الخاصة » ^(١٣) ، وأن كليبر « أذن بإنشاء القوة القبطية » . ويؤثر الدكتور لويس عوض ألا يرجح أن يكون يعقوب هو الذي أنشأ الفرقة القبطية ، فيقول إن كليبر عين يعقوب « قائدا لتغلب القبطي الذي شكّل في مصر ليعاون الفرنسيين في حربهم ضد المماليك والأتراك » ^(١٤) .

غير أن معاصري الحملة من المؤرخين بذهيون مذهبا آخر . فيقول ريجو (نقلا عن بعض وثائق الحملة ومعاصريها) إنه بعد انتصار كليبر على الأتراك في موقعة عين شمس « كان لديه ١٥ ألف ضابط وحندي على استعداد لخوض معركة أخرى فورا ... وكان كليبر يتأهب لكي يضم إليهم قوات إضافية : فرقة من الأقباط وأخرى من اليونانيين » ^(١٥) .

في ذلك غيرهم من نصارى الشام ومن إليهم ، وأن يسوء سلوك هؤلاء وأرثوذكس في معاملة المسلمين إلى أقصى حد . ونستطيع أن نتبين قناعة انصورية من عبارات الجبرق التي وصف بها هذه الحالة والتي تقطر مرارة وسخطا . فهو يقول مثلا « تطاولت النصارى من القبط والشوام على المسلمين بالسب والضرب ونالوا منهم أغراضهم وأظهروا حقدهم ولم يبتخوا للمصلح مكانا وصرخوا بانقضاء ملة المسلمين وأيام المؤرخين .. » ^(٩) . ويشير الجبرق إلى تعسف السلطات الفرنسية في تحصيل المعامير التي فرضتها على المصريين ، من أموال وغلل وماشية وغيرها ، فيقول « وكل ذلك بإرشاد القبطية وطوائف البلاد (يقصد الأقباط المسيحية الأخرى) لأنهم هم الذين تقلدوا المناصب الجليلة وتقاوموا الأقاليم والتزموا لهم (أى الفرنسيين) بجمع المال . ونزل كل كبير منهم إلى إقليم وأقام بسرة الإقليم مثل الأمير الكبير ومعه عدة من العساكر الفرنسية وهو في أبهة عظيمة وصحبه الكتبة والصارف والاتباع ... والخدم والفراشون ... وتقاد بين يديه الجنائب والبيغال والرهوانات .. والقواسم والمقدمون وبأيديهم الحراب المفضضة والمذبة ... ويرسل إلى ولايات الأقاليم من جهته المستوفين (أى المخصلين) من القبط أيضا ... ومعهم العسكر من الفرنسية .. والصرافين والمقدمين ... فينزلون على البلاد والقرى ويطلبون المال والكلف الشاقة بالعسف ويؤجلونهم بالساعات فإن مضت ولم يوفوهم بالمطلوب حل بهم ما حل من الحرق والنهب والسلب والسب ، وخصوصا إذا فر مشايخ البلدة من خوفهم وعدم مقدرتهم ، وإلا قبضوا عليهم وضربوهم وسحبوهم معهم في الحبال وأذاقوهم أنواع التكال » ^(١٠) .

أما يعقوب فقد تعاضم نفوذه وعلت مراتبه ، وبلغ في علاقته بالفرنسيين شأوا بعيدا . صحيح أنه لم ينس أن يجمع لنفسه عندما جمع

المنفذة في ذلك . ولكن هذا لا ينفى أن خطة الفرنسيين كان لها في نفس يعقوب صدى طيب ، وأنها وجدت منه تجاوبا متحسنا . فنحن لانسى له سابقة اهتمام بالأمور القتالية منذ صباه وميله الشخصي إلى الفروسية والنزال . ونحن نذكر له ما اصطنعه في مقر إقامته بالقاهرة من وسائل التحصين إبان ثورة القاهرة الأولى ، ثم اشتراكه في الحرب مع قوات ديسيه التي كان يصحبها في زحفها بالصعيد ، وكذلك ما اتخذ من إجراءات وما كان له من إسهامات في أيام ثورة القاهرة الثانية . أي أن الفرنسيين بمخطتهم الاستعمارية ويعقوب بأحلامه وتطلعاته التقيا على إرادة واحدة تجسدت في إنجاز واحد ، هو تكوين الفيلق القبطي .

وعلى ذلك فمن المبالغة أن نفترض أن يعقوب هو الذي فكر وحده في إنشاء الفيلق القبطي ، ثم نجعل من ذلك الفرض مسلمة بنى عليها موقفا ليعقوب لاسند له من دليل ، فنقول كما قال الأستاذ شفيق غربال « إن من أسباب تأييد يعقوب للحكم الفرنسي أنه أتاح له إنشاء قوة حربية مصرية مدربة على النظم العسكرية الغربية ، وإن وجود الفرقة القبطية أول شرط أساسي يمكن رجلا من أفراد الأمة المصرية ... من أن يكون له أثر في أحوال هذه الأمة (أي يتزعم حركة استقلالها) إذا تركها الفرنسيون وعادت للعثمانيين والمماليك يتنازعونها ويعيثون فيها فسادا » . ومن الغريب أن يذهب مؤرخ عظيم كشافيق غربال في التصور إلى ما هو أبعد من هذا ، فيعقد مقارنة بين يعقوب وعسر مكرم قائلا إن يعقوب كان « يرمى إلى الاعتماد على القوة المدربة والسيد عمر يعتمد على الهياج الشعبي الذي تسهل إثارته ، والذي قد يصل سريعا لتحقيق أغراض حاسمة ولكنه لا يصلح قاعدة للعمل السياسي الدائم المثمر .. هذا الفرق بين الأداة التي اختارها يعقوب وتلك التي اختارها السيد عمر ، ليس في الواقع إلا مظهرا لفرق أعسق . إذ ما حاجة ... نقيب الأشراف إلى جيش ، والرجل لا يتصور مصر إلا خاضعة لحكم المماليك تحت سيادة السلطان أما يعقوب فله شأن آخر ، إذ أنه

ويؤيد الجبرتي ذلك ، بالضغط في حديثه عن حوادث تلك الأيام نفسها (آخره ١٢١٥ : مايو - يونيو ١٨٠٠) « طلبوا عسكريا من القبط فجمعوا منهم طائفة وزيوهم بزيتهم وقيدوا بهم من يعلمهم كيفية حربهم ويدربهم على ذلك وأرسلوا إلى الصعيد فجمعوا من شبابه نحو الألفين وأحضرهم إلى مصر (أي القاهرة) وأضافوهم إلى العسكر » (١٦) .

وكذلك ذكر الجنرال رينييه (Reynier) ، وهو أحد قواد الحملة النابوليين ، أن كليبر بعد نقض اتفاقية العريش كون فرقة من اليونانيين (الأروام) بلغ عدد أفرادها ١٥٠٠ جندي (أي ما يقرب من عدد جنود ثينيلو القبطي) . وسجل معاصرو كليبر أيضا أنه في صبيحة يوم -مصر- ذهب إلى جزيرة الروضة لكي يتفقد القوات اليونانية (١٧) .

ومما يؤكد أن تجنيد أبناء طوائف الأقليات المختلفة في مصر كان سياسة فرنسية بحتة ما حدث عندما بدأت المناوشات بين الفرنسيين والعثمانيين عقب صلح العريش مما انتهى بنقضه . وقد ذكر الجبرتي من ذلك أن العثمانيين أرسلوا بعد الصلح بعض المراكب إلى « ثغر اسكندرية » لاستئناف العلاقات التجارية مع مصر في حراسة بعض السفن الحربية . ولكن الفرنسيين « استولوا على الجميع وأخذوا مدافعهم وسلاحهم وحبسوا القباطين وأعيان التجار وأخذوا الملاحين والمنسجين من البحرية والنصارى الأروام وهم عدة وافرة وأعطوهم سلاحا وزيوهم بزيتهم وأضافوهم إلى عسكريهم وأرسلوهم إلى مصر (أي القاهرة) » . بل إن بونايرت نفسه عندما قاد حملته على مصر كان في جعبته مشروع لتجنيد عشرين ألف رجل من أقليات الولايات العثمانية التي يفتحها .

ومن هنا فالأقرب إلى المنطق أن تكوين فرقة عسكرية من شباب الأقباط كان من خطط المستعمرين الفرنسيين وأن يعقوب كان أداءهم

أحلام الفارس القديم : فرقة من الجند وقلعة محصنة وحرس خاص
ورسوم وشارات ولقب عسكري .

لا يريد عودة المماليك والعثمانيين وإنما يعمل على أن تكون لفظة من
المصريين يد في تقرير مصير البلاد ... أراد يعقوب أن يكون الأمر غير
ذلك ، وعول على أن تكون القوة الحربية المصرية الجديدة مدربة على
التنظيم الغربية ، فكان سياقاً إلى تفهم المدرس الذى ألقاه انتصار
الفرنسيين على المماليك . أو قل إلى إدراك ما أدركه محمد على بعد قليل
من أن سر انتصار الغربيين في جودة نظمهم وبخاصة نظمهم
العسكرية ... « (١٨) » .

استقر يعقوب في القاهرة على رأس الفيلق القبطي . ويبدو أنه كان
هذا الموقف الغريب والمضى في تأييد المستعمر وخططه إلى هذا المدى
أسوأ الأثر في نفوس المصريين . ولعل في عبارة مؤرخنا الجيرى التى
سجل بها هذا الحدث : وما تحفل به من امتعاض ومرارة ، ما يعكس
مشاعر الناس إزاءه . قال الجيرى من حوادث عام ١٢١٥ - « إن
يعقوب القبطي لما تظاهر مع الفرنسيات وجعلوه سارى عسكر القبطية
(أى قائدا ضم) جمع شبان القبط وحلق لحاهم وزياهم بزى مشابه
لعسكر الفرنسيات مميزات عنهم بقبع يلبسونه على رؤسهم مشابه لشكل
البرنيطة وعليها قطعة فرو سوداء من جلد الغنم في غاية البشاعة مع
ما يضاف إليها من قبح صورهم ، وسواد أجسامهم وزفارة أبدانهم
وصيرهم عسكره وعزوته ، وجمعهم من أقصى الصعيد وهدم الأماكن
المجاورة لخارة النصرى التى هو ساكن بها خلف الجامع الأحمر ، وبنى
له قلعة وسورها بسور عظيم وأبراج وباب كبير يحيط به بدنان عظام .
وكذلك بنى أبراجاً في ظاهر الخارة جهة بركة الأزيكية . وفي جميع
السور المحيط والأبراج طيقانا للمدافع وبنادق الرصاص على هيئة سور
مصر (أى القاهرة) الذى رمه الفرنسيات . ورتب على باب القلعة
الخارج والداخل عدة من العسكر الملازمين للوقوف ليلاً ونهاراً وبأيديهم
البنادق على طريقة الفرنسيات (١٩) » . وهكذا أرضى يعقوب في نفسه

في عهد منو

لم ينعم كليبر طويلا بانتصاره على العثمانيين وبتجاحه في إخماد ثورة القاهرة الثانية وفي تحقيق الاستقرار بالصعيد . فمالبث أن لقي مصرعه على يد سليمان الحلبي في ١٤ يونيو ١٨٠٠ . تكهروا الجو في القاهرة والأقاليم مرة أخرى ، وتولى قيادة الحملة جاك منو (Menou) وبدأ التاريخ يحط أولى سطور الفصل الختامى في حياة الحملة الفرنسية وجيش الشرق . ومما يلفت النظر في هذه المناسبة ويوضح وثيق الصلة بين الفرنسيين والطوائف المسيحية في مصر أن جنازة قائدهم المقتول لم يشترك فيها من المصريين غير ممثلى هذه الطوائف . ولتقرأ مقاله شاهد العيان المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي من وصف هذه الجنازة : « ولما فرغوا من ذلك (أى من محاكمة سليمان الحلبي وزملائه) اشتغلوا بأمر سارى عسكريهم المقتول ، وذلك بعد موته بثلاثة أيام كما ذكر ، ونصبوا مكانه عبد الله جاك منو ، ونادوا بالكف والرش (استعدادا للجنازة) فلما أصبحوا اجتمع عسكريهم وأكابرهم وطائفة عينها القبط والشوام (أى يمثلونهم) وخرجوا بموكب مشهده ركباناً ومشاة وقد وضعوه في صندوق من رصاص ... »

استمر يعقوب في عهد منو يؤدي مهمته في خدمة السلطات

الفرنسية ، ويتفانى هو وأعوانه في أداء هذا العمل على حساب أمن المصريين وسلامتهم وحرمانهم وكراماتهم وخرمة بيوتهم وأموالهم . واستقراء الوقائع في هذا الصدد وإنعام النظر في ملاسائها وردود فعلها يبين أن موقف هؤلاء « المتعاونين » كان نابعا من أكثر من مجرد الشعور بالتعصب الطائفي . لقد غلبت عليهم الانتهازية الجشعة والأثرة العمياء التي تجرد النفوس من المشاعر الإنسانية الطيبة ، واستغلال الظروف غير الطبيعية التي دفعت بهم ، وهم فئة قليلة مستضعفة من الناس، فجأة الى مكان الصدارة والنفوذ والمنعة ، بعد أن عانوا طويلا « من امتنان لا يرفعهم من حضيضه ما ملكوه من مال وجاه ، ولا يفارقهم مهما زادت حاجة الحكام اليهم» ، كما يقول شفيق غربال (٢٠) .

ويحدثنا الجبرتي عن كثير مما شاهده في تلك الأيام العصيبة فيقول « اشتد أمر المطالبة بالمال وعين لذلك رجل نصراني قبطي يسمى شكر الله ... فنزل بالناس منه مالا يوصف .. فكان يدخل إلى دار أى شخص لطلب المال وصحبه العسكر من الفرنسيين والفعلة وبأيديهم القزم فيأمرهم بهدم الدار إن لم يدفعوا له المقرر وقت تاريخه من غير تأخير إلى غير ذلك ، وخصوصا ما فعله بيولاقي فإنه كان يجس الرجال مع النساء وينوع عليهم العذاب (٢١) .

ويروي الجبرتي كذلك في حديثه عن مشاركة يعقوب ورجاله في تحصين القاهرة في وجه العثمانيين عندما اقتربوا منها للمرة الثانية (من حوادث شهر الحرم ١٢١٦ : مايو ١٨٠١) أنه « توكل رجل قبطي يقال له عبد الله من طرف يعقوب بجمع طائفة من الناس لعمل المتاريس فتعدى على بعض الأعيان وأنزلهم من على دوابهم وعسف وضرب بعض الناس على وجهه حتى أسال دمه فتشكى الناس من ذلك القبطي » . ويبدو أن تجاوزات أعوان يعقوب بلغت من التطرف حدا جعل السلطات الفرنسية نفسها تتدخل لوقفها . فعندما أنهى الناس

شكواهم إلى « بليار » (Belliard) قائمقام (آى نائب) منو أمر بالقبض على ذلك القبطى « وحبسه بالقلعة ... » (٢٢) .

وكان من أعوان يعقوب فى قهر المصريين بعض المسلمين . فيذكر الجبرنى من حوادث ١٨ ربيع الثانى ١٢١٦ (أول سبتمبر ١٨٠١) أن السلطات العثمانية التى كانت احتلت القاهرة بعد أن انسحب منو إلى الاسكندرية قد اعتقلت « مصطفى الطاراقى » وحصلت منه « خمسة عشر ألف ريال ومصطفى هذا كان كلارجيا (أى أمين مخزن الأغذية) عند قائد أغا (أى رئيس الأنكشارية) . فلما خرج الأمراء (أى المماليك بعد دخول الفرنسيين) تقيده مقديما عند بونايرته ثم عند كليبر . فلما وقعت الفتنة السابقة وظهر يعقوب القبطى وتولى أمر الفردة وجمع المال تقيده بخدمته وتولى أمر اعتقال المسلمين وحبسهم وعقوبتهم وضربهم ، فكان يجلس على الكرسي وقت القائلة (الظهيرة) ويأمر أعوانه بإحضار أفراد المحبوسين من التجار وأولاد الناس فيمثل بين يديه ويطلبه بإحضار ما فرض عليه مما لا طاقة له به ولا قدرة له على تحصيله فيعتذر بخلو يده ويترجى إمهاله فيزجره ويسبه ويأمر بضربه ويرده إلى السجن بعد أن يأمر أعوانه أن يذهب إلى داره وحبسته الجماعة من عسكر الفرنسيين ويهجمون على حريمه ... » (٢٣) . وقد تم إعدام مصطفى هذا فى ميدان باب الشعرية بعد ذلك بأقل من شهرين .

هذا وقد كافأ منو المعلم (الكولونيل) يعقوب على خدماته المخلصة للفرنسيين ، وبخاصة فى تلك الأيام المضطربة الحافلة بالأحداث بمنحه رتبة « جنرال » ، وكان ذلك فى مارس ١٨٠١ .

قصيدة غير عسماو

غير أن يعقوب أصيب فى عهد منو بصدمة عاطفية هزت أعماقه ، فقد بلغه — متأخرا — خبر مصرع صديقه وحببيه الوسيم الجنرال ديسيه . كان ديسيه قد غادر مصر فى عهد كليبر بدعوة من بونايرت لينضم إليه فى حربه مع النموسيين ، فقتل فى معركة مارنجو (Marengo) الشهيرة التى دارت عند إحدى القرى الإيطالية يوم ١٤ يونيو عام ١٨٠٠ ، وهو نفسه يوم مصرع كليبر . ويقول جاستون خمصى إن المعلم يعقوب حزن لوفاة صديقه ديسيه — وكان فى الثانية والثلاثين — حزنا شديدا وكتب إلى الجنرال منو يعرض عليه دفع ثلث تكاليف بناء النصب المزمع إقامته لتخليد ذكرى « الرجل الذى وهبه قلبه » . وكانت سلطات الحملة قد فتحت اكتبابا لإقامة هذا النصب بين جنودها (٢٤) .

وأراد يعقوب كذلك أن يعبر للمستولين الفرنسيين عن حزنه بطريقة مبتكرة ، وذلك بأن يرسل مرثية شعرية إلى حكومة باريس ! فكلف صديقه الأب روفائيل أن ينظم له قصيدة بما أراد ، فنظمها هذا فى خمسة وثلاثين بيتا ، وأرسلها يعقوب بالفعل إلى فرنسا . ولا بد لنا هنا من

قصيدة يعقوب . ولكنها اكتفيا بالإشارة إلى ذلك دون أن ينشرا بينا واحدا منها . وقد عثرنا على النسخة الأصلية للقصيدة التي بعث بها يعقوب ومعها ترجمتها الفرنسية في بعض محفوظات وزارة الحربية بباريس . ومن فحص مخطوط القصيدة وإنعام النظر في ميناها ومعناها نستطيع أن نخرج ببعض الدلالات المهمة عن ناظمها ومرسلها .

القصيدة مقدمة على شكل لوحة جميلة ، فهي على ورق جيد شبه صقيل يمتاز عن الورق المعتاد في ذلك العهد . وقد استخدم كاتبها وواضح أنه خطاط محترف — خط النسخ الجميل في كتابة النص ، مع بعض عبارات في المقدمة بخط الثلث . ورأس هذه اللوحة مزين بالزخارف الدقيقة الملونة والمذهبة ، وكذلك استخدمت الوحدات الزخرفية الملونة في الفصل بين أشطر الأبيات . ويعلو اللوحة تكوين زخرفي تليه عبارة « إنا لله وإنا إليه راجعون » ، وهي كما نعلم جزء من الآية القرآنية « الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون » .

وتلى ذلك مقدمة نثرية مسجوعة تقول بما يشبه أن يكون أسلوبا إسلاميا تقليديا « الحمد لله محرك آلات الألسن الأوانس ، بأنعام اللغات اللوامس ، وكاشف الغطاء الدلامس ، عن الآثار الدوارس . نحمده حمدا وشكرا لا تقا بإله مبدع وخالق ، بارى البروات والخلائق ، مكون الأرض والسموات ، يصور الأحياء والأموات ، يميز النفائس من الخسائس ، فلا إله غيره ، ولاخير إلا خيره ، وهو المالك والسائس ، آمين » . وواضح من هذه المقدمة افتعال صاحبها في استخدام الألفاظ التي تناسب سجعه حتى ولو لم تناسب المعنى ، وغموض بعض العبارات وركاكتها ، والخطأ في اشتقاق بعض الألفاظ .

ثم يمهد الكاتب لأبيات القصيدة بهذا المدخل الذي يقول بالنص : « وبعد ، فهذا دعاء جليل سديد ، به نتحب وفات عزيزه ، الجنرال

وقفه متأنية تتأمل فيها هذا العمل ودلالاته . ولكن ينبغي قبل التعرض لمضمون هذه القصيدة وبنائها أن يتعرف معنا القارئ على ناظمها ، فمن هو روفائيل ؟

الأب روفائيل أو رفايل (١٧٥٨ - ١٨٣١) اسمه الأصلي أنطون زخورة راهبة ، وهو من أسرة سورية معروفة تنتمي إلى طائفة الروم الكاثوليك . ولد في مصر وفيها تعلم ثم أكمل تعليمه الديني في إيطاليا وأنقن عدة لغات وتنقل بين مصر وسوريا وإيطاليا حيث عمل بالترجمة ، ثم استقر في مصر حتى وصلت الحملة الفرنسية فالتحق بالعمل فيها مترجما ، وكان الشرق الوحيد الذي عينه الفرنسيون عضوا بالمجمع العلمي (في لجنة الفنون والآداب) . وهناك أسهم في إعداد البحوث وترجمة الوثائق التي ساعدت علماء المجمع في إعداد كتاب « وصف مصر » . وتولى روفائيل كذلك مهمة الترجمة الفورية في كثير من جلسات ديوان القاهرة ، كما ترجم عددا من المراسيم والمنشورات والمطبوعات التي أصدرتها الحملة ، ومنها محاضر محاكمة سليمان الحلبي قاتل كليبر ، وكتيب عن مرض الجدرى أصدره « ديجنت » (Désgenettes) كبير أطباء الحملة . وقد ارتحل روفائيل بعد الحملة إلى فرنسا حيث عمل بمدرسة اللغات الشرقية بباريس ، ثم عاد إلى مصر في عهد محمد علي وعمل بالترجمة لحكومته ، كما أسهم في إنشاء مطبعة بولاق ، وترجم من الإيطالية كتاب « الأمير » لمكيافيلي الذي كان أول ما أخرجه مطبعة بولاق من كتب .

وإلى جانب الإشارات القليلة المتناثرة عن روفائيل في مراجع الحملة وعهد محمد علي ، وفي كتاب الجبرتي ، فقد أحطنا بتفصيلات حياته من بعض مقالات كتبها بالعربية والفرنسية اثنان من أبناء قومه هما الخوري قسطنطين الباشا ، وشارل يشاتلي ، ومنهما وحدهما عرفنا أن روفائيل حاول قرض الشعر إلى جانب عمله في الترجمة ، وأنه هو الذي نظم

ولم يزل يفكرى مخلدا أبدا
حتى إلى خروج الروح من صدرى
○ ○ ○

جد على بلحظ العين مترأفا
وانظر الى بأسنى بركة النظر
فانظر إلى شعبنا وشقاء حالته
فعدت حياتنا لا تخلوا من الكدر
لاحظ المصريين وكيف كانوا قديما
وعيدا غدوا الآن للرق واليسر
○ ○ ○

ومحبتنا للفرنسيس فلا بد عنها
لأنهم اعتقونا من الأضرار والشر

ومن حيث الشكل فإن هذه الأبيات المنهاكة البناء الواهية التركيب الحافلة بأخطاء النحو والصرف والنحجاء قبل أخطاء العروض ، تدل على أن ناظمها لم يكن يحظى بأية موهبة شعرية ، وأن محاولته قرص الشعر باءت بالفشل الذريع، كما تدل على أن لغته العربية نفسها كانت ضعيفة متهافنة ، الأمر الذى تؤكد ترجمته فى المنشورات وغيرها من وثائق الحملة ، ثم فى كتاب مكيايللى الذى ترجمه محمد على والذى قال عنه جاك تاجر انه « حرص فيه على حفظ المعانى ولو انه استعمل العبارات الركيكة التى كان استعمالها شائعا فى هذه الفترة » (٢٥) .

أما مضمون الأبيات وهو الذى أوحى به يعقوب لناظمها ، فإنه يجوى عددا من المعانى ذات الدلالات المهمة على أفكار يعقوب وموقفه من الحملة ، والمعانى التى تتصل بعلاقته الخاصة بصديقه الذى يرثيه . إننا نستطيع بالرغم من العيوب اللغوية والشعرية للقصيد أن نستخلص منها ما يلى :

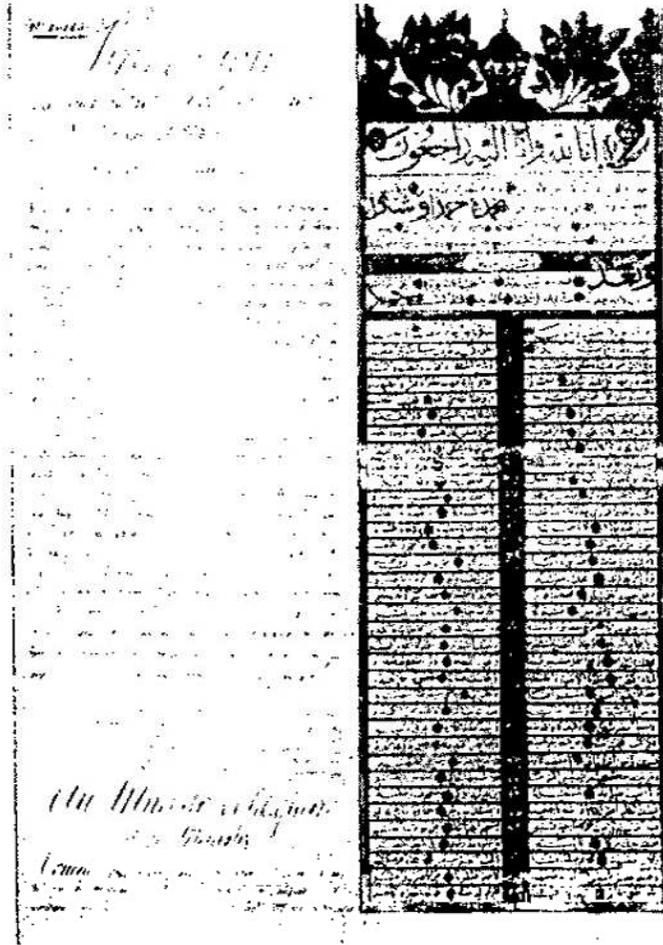
داسه ، صاحب الأمير يعقوب ، سارى عسكر القبط الجديد ،
فيقول « . ولا يخفى على القارىء ما يتضمنه هذا التمهيد على قصره من
أخطاء فى تقسيم العبارات وإرجاع الضمائر ، بل وهجاء
الألفاظ (شكل ٣) .

أما أبيات القصيدة التى لم تنشر من قبل ، والتى لا تخلو من طرافة ،
فهذه مختارات منها بنصها :

أذرفنا على ذكر الحبيب دموعا
سكرنا بها ليوم البعث والحشر
حبيب وقد ذاع صيته أبدا
بطل وقد عرف فى سائر القطر
فتلألأت شجاعته وعقله ثم فطنته
وشرح احتقاره الدنيا بالنظم والنسر
وقد فاز بها على الممالك إجمالا
ظافرا بأرقابهم نصرا بالعز والقهر
وأخضع تشاخي جماعة البربر
مروضا أخلاق أهل اقليمنا المصر
○ ○ ○

فأها على ناصرى داسه ووا اسفى
على اصطحابى به لو قدر القدر
فكنت أرغب وجودى بميدانى مارنجوا
كما رافقته قبلا بصعيدنا المصرى
فموتى عنه فداء كان يغنيه
عن فقد حياة مقيدة ذكرها دهر

شكل (٣) رثاء يعقوب للجنرال ديسيه (الشعر للأب رفايل)



— يشيد المعلم يعقوب ببطولة ديسيه « فاتح بلادنا بناحية قبلي »
ويصفه بأنه صنيدي مجاهد شجاع عاقل فطن .

— يذكر بالشمانة انتصار ديسيه على المماليك وإذلاله للهمج
« أخضع تشايخ جماعة البربر » وكلمة « بربر » (Berber) هنا تعنى
الهمج ، وهى لاشك من أثر معرفة روفائيل للفرنسية . ولعل يعقوب
يقصد بها سكان الصعيد بعامة الذين قاوموا زحف ديسيه ، أو لعله على
أحسن الفروض يقصد جماعات البدو الذين انضموا إلى قوات المماليك
في مقاومة الغزو الفرنسى . ويتكرر ذكر البربر في القصيدة ويوصفون
بأنهم « أعداء الله والبشر » .

— يقول إن المصريين كانوا قديما شعبا عظيما ، ثم غدوا (تحت
الحكم الإسلامى بالطبع) عبيدا للرق والأسر ، وأن الفرنسيين هم
الذين خلصوهم من الذل والعبودية .

— يصور سوء حال المصريين بعد رحيل ديسيه . ويخاطب
الفرنسيين في شخص صديقه الراحل معربا عن خشيته من أن تعود مصر
إلى سابق عهدها من الذل والقهر إذا ما تم الصلح (وكان وقتئذ
متوقعا) وأخلاها الفرنسيون . ويناشدهم ألا يدعوا مصر « لسابق
القهر » وألا يتركوها لحاكم « يسوس بالقسر » .

— لم ينس يعقوب كذلك أن يجامل بونابرت فيشيد بانتصاراته
« وماخصه الله من العظمت والقدر » .

— يؤكد أكثر من مرة حب قومه للفرنسيين « لأنهم اعتقونا من
الأضرار والشر » .

أما على المستوى الشخصى فهناك ملمح لا تختلعه العين في أبيات هذه
القصيدة . إننا نستطيع أن نستشف مما تتضمنه من عواطف مسرفة أن
العلاقة بين يعقوب وصاحبه كانت شيئا أكبر من مجرد الصداقة أو
الولاء . إن حزن يعقوب على ديسيه يكاد يكون حزن عاشق ولهان ،

فهو يكرر في ذكره كلمة الحب ومشتقاتها ، وهو يتمنى أن لو كان قد مات فداء له (في معركة مارنجو) ويؤكد أن قيده لم يزل بفكره "مخلدا أبدا حتى الى خروج الروح" من صدره . ثم هو يتاجيه بقوله « جد على بلحظ العين » ، ويناشده أن يرأف به وان يمنحه نظرة تضيء كسنا البرق . ويصور انتقاله الى الملكوت الاعلى تصويرا رومانسيا . يذكر فيه «جمال نفسه» والنور الذى يحيط بروحه ويضيء على العالم كالقمر ، « متزينا بيهاء أشعة الحب للبشر » .

من الواضح إذن أن العلاقة التى كانت تربط يعقوب بديسيه علاقة حميمة جدا . فقد صحبه صحبة كاملة طيلة أكثر من عام حتى تعلق به تعلقا شديدا كما يقول مؤرخه جاستون حمصى . ويروى الجنرال بليار فى مذكراته ، وكان من ضباط ديسييه فى حملة الصعيد ، الكثير عن الأمسيات الطويلة التى كان يرتبها ديسييه فى منزله بأسيوط ويحضرها يعقوب مع ضباط الحملة ، وكذلك الأمسيات الباذخة التى كان يرتبها يعقوب فى منزله لديسييه وضباطه . وكانت السهرات تمتد فى هذه الأمسيات وتلك ، والأحاديث تدور حول شتى الموضوعات (١٦) .

ومهما يكن من أمر فلا نستطيع أن نؤتم هذه العلاقة الشخصية أو أن نجزم بشيء عن مدى ما وصلت إليه بين الرجلين . كل ما يمكن قوله فى هذا الصدد أنها حفرت فى نفس يعقوب خطا عميقا . وكتاب الجيرى على أية حال حفل بذكر علاقات حميمة كثيرة قامت بين بعض المصريين وبعض الفرنسيين أيام الحملة ، وفى مقدمتها ما ذكره عن علاقة صديقه الأديب المعروف الشيخ اسماعيل الخشاب بشاب من ضباط الجيش الفرنسى .

نهاية الحملة .. والرحيل

اقتربت أيام الحملة من نهايتها ، وتهافت أحلام منو الاستعمارية فى أن يجعل من مصر ، لا مجرد قطر احتله الفرنسيون بالغزو ، وإنما قطرا تم ضمه الى فرنسا (Pays annexé) ، هذا بالرغم من تظاهره باعتناق الإسلام الذى لم يستطع أن يقنع به أحدا من المصريين . وذلك كما تهافت من قبل أحلام بونايرت فى أن يؤسس فى هذا الجزء من العالم ملكا جديدا يقوم على أسس تمزج بين الحضارة الإسلامية ومبادئ الثورة الفرنسية ... الخ . وغادر منو القاهرة الى جبهة الاسكندرية ، بينما بقى نائبه (قائمقامه) بليار يدافع عن العاصمة ، ويحاول جهده أن يحفظ ماء وجه الحملة ، قبل الجلاء الذى لم يعد منه مفر ، الى آخر قطرة .

واصل الجيش العثمانى زحفه نحو القاهرة ، وواصل الجيش الإنجليزى كذلك زحفه من رشيد ، تاركا منو محاصرا فى الاسكندرية . وزاد من تخرج موقف الفرنسيين انتشار الطاعون وفتكه بعدد كبير من الأهالى والجنود . ومن ثم قرر بليار مع سائر قواده عدم انتظار تعليمات منو ، والمضى فى مفاوضة العثمانيين والإنجليز فورا لعقد اتفاق على أساس الجلاء الكامل عن مصر . وهكذا وقع بليار اتفاقية لم تختلف موادها كثيرا عن

على راحة الاهالى وأمنهم ، وعلى ذلك « فيلزم أنتم أيضا تسلكوا في الطريق المستقيمة وتفكروا ان الله تعالى جل جلاله هو الذى يفعل كل شىء والسلام » . وبناء على ذلك فقد أمن على نفسه وماله وعباله كل من تعاون مع الفرنسيين في أثناء الاحتلال ، واستعد من يريد السفر منهم مع الحملة المنسحبة إلى فرنسا وفي مقدمة هؤلاء وأولئك المعتم يعقوب (شكل ٤) .

بعد أيام قليلة من صدور هذا المنشور أرسل ابراهيم بك الذى كان يصحب القوات العثمانية الزاحفة إلى القاهرة « أمانا لأكابر القبط فخرجوا ... وسلموا ورجعوا الى دورهم » . أما يعقوب الذى كان يشترك بفيلقه في حماية ظهر قوات بليار بالقاهرة ، فانه خرج بمتاعه .. وعدى الى الروضة وكذلك جمع اليه عسكر القبط وهرب الكثير منهم واختفى ، واجتمعت نساؤهم وأهلهم وذهبوا الى قائمقام (بليار) وبكوا وولولوا وترجوه في إبقائهم عند عيالهم وأولادهم فإنهم فقراء وأصحاب صنائع ما بين نجار وبناء وصانع وغير ذلك . فوعدهم أنه يرسل الى يعقوب أنه لا يقهر (أى لا يرغم) من لا يريد الذهاب والسفر معه (٢٧) .

واستطرد الجيرنى إلى ذكر الآخرين الذين فضلوا الفجرة مع الفرنسيين فقال « خرج المسافرون مع الفرنساوية الى الروضة والجيزة بمتاعهم وحرمتهم وهم جماعة كثيرة من القبط وتجار الافرنج والمترجمين وبعض مسلمين ممن تداخل معهم وخاف على نفسه بالتخلف ، وكثير من نصارى الشوام والاروام مثل بنى وبرظلمين (بارتلمى الذى كانت العامة تطلق عليه فرط الرمان) ويوسف الحموى وعبد العال الأغا أيضا الذى طلق زوجته وباع متاعه وفراشه وما ثقل عليه حملة » . وكان عبد العال هذا أغا الانكشارية ، أى قائدهم ، وقد أذاق القاهريين الكثير من بطشه وجبروته . وبعد نحو شهر من خروج هؤلاء المهاجرين من

مواد اتفاقية العريش التى وقعت من قبل في عهد كليبر ثم نقضت . وكان ذلك في أواخر يونيو ١٨٠١ .

ولم يعلم منو بتوقيع نائبه بليار لهذه الاتفاقية إلا مؤخرا . وقد ثار عندما اطلع على شروطها ، ولكنه لم يلبث أن وقع هو نفسه في آخر أغسطس اتفاقية مماثلة للجلاء عن الاسكندرية .

وقد تضمنت اتفاقية بليار للجلاء مادتين تهمان سكان القاهرة بوجه خاص ، هما المادتان الثانية عشرة والثالثة عشرة ، فأرى بليار إذاعتها وحدهما في منشور خاص بالعربية والفرنسية موجه منه الى « جميع أهالى تخروسة مصر (أى القاهرة) وقدم بليار لنص هاتين المادتين بعبارة قال فيها إن إرادة الله تعالى قضت « بالصلح ما بين عساكر الفرنساوية وعساكر الإنجليز وعساكر العتالئية .. » ثم استدرك يطمئن الاهالى الى أن هذا الصلح لايعنى المساس بأشخاصهم أو عقائدهم أو أملاكهم . وأكد لهم أن « رعوس عساكر الثلاثة جيوش قد أشرطوا بهذا » . أما نص المادتين فهو كما جاء بالمنشور :

الشرط الثانى عشر : كل واحد من أهالى مصر المحروسة من كل ملة كانت الذى يريد يسافر مع الفرنساوية يكون مطلق الإرادة وبعد سفره كامل ما تبقى أعياله ومصالحه لم أحدا يعارضهم (فى النص الفرنسى : لا تصادر ممتلكاتهم) .

الشرط الثالث عشر : لا أحدا من أهالى مصر المحروسة من كل ملة كانت لا يكون قلعا من قبل نفسه ولا من قبل متاعه ، جميع الذين كانوا بخدمة الجمهور الفرنسى بمدة إقامة الجمهور بمصر . ولكن الواجب يطيعون الشريعة (فى النص الفرنسى قوانين البلاد) .

وختم بليار هذا المنشور بعبارة وجهها إلى « أهالى مصر وأقاليها جميع المثل » قال فيها إن الفرنسيين لم يكفوا حتى اللحظة الأخيرة عن العمل

LE GENERAL DE DIVISION
BELLIARD,
 Commandant le Kaire et les Troupes de l'Arrondissement,
Aux Habitants du Kaire, de toutes les Religions.

من حذو لكم الميرال بلسيار تهتم مصر حذو وسأرى مسافر لعمرك
 حذوا الى جمع لعل عروسه حذو

م انه اراء انه تعالى بلعق سنا من مسافر
 الفرنساوية وسافر الاتحاف ومسافر المعاليه وليس
 مع هذا السخ لتسكم واهائكم ومناكم لم احنا
 بعازهم وروس مسافر اللاده جيتر قد انطرا
 بهما كما نرو في القربا الثاني عفر ولدت حفر

القربا الثاني عفر ولدت حفر
 كل ولدت من لعل مصر المروسة من كل ماء كانت
 الذي نوب وسافر مع العرساوية يكون مطبق الانارة
 وحد حرة كامل ما نبق اعياله ومناك لم احنا
 بعازهم

القربا الثالث عفر
 لاننا من لعل مصر المروسة من كل ماء كانت
 لا يكون فلان من نيل معه ولا من نيل مناهم جميع
 الذي كانوا بجمعه الجمهور العرساوية بعد انقائه
 الجمهور مصر ولكن الواجب بطريق القربا

لم بالعال مصر وانلها جميع لللق انتم فلان
 لحد اخر درجه الجمهور العرساوية فلانكم ولواحكم
 فيانكم انتم ايضا تسلكوا في الطريق السلطنة
 وتدقروا اب انه تعالى حذو حذو هو الذي بهتم
 كل من والمسلم

حوز في ٢٠ عرسه ١١١٠

مصر
 الميرال بلسيار تهتم مصر حذو

PAR la volonté de Dieu tout puissant, le
 paix vient de se conclure entre les armées
 française, anglaise et ottomane ; mais par cet
 arrangement vos personnes, vos religions, et
 vos propriétés ne seront d'être respectées -
 les trois puissances en prennent l'engagement
 formel, comme vous pouvez en juger par les
 deux articles du traité de paix transcrits ci-
 après :

ART. XII.
 " Tout habitant de l'Égypte, de quelque
 " nation qu'il soit, qui voudra suivre l'armée
 " française, sera libre de le faire, sans qu'après
 " son départ sa famille soit inquiétée, ni ses
 " biens confisqués "

ART. XIII.
 " Aucun habitant de l'Égypte, de quelque
 " religion qu'il soit, ne pourra être inquiété
 " ni dans sa personne, ni dans ses biens, pour
 " les liaisons qu'il aurait eues avec les Fran-
 " çais pendant leur occupation de l'Égypte,
 " pourvu qu'ils se conforment aux loix du
 " pays "

Habitans du Kaire et de l'Égypte, de toutes
 les religions, vous voyez que jusqu'au dernier
 moment les Français n'ont cessé de veiller à
 votre repos et à votre sûreté ; maintenez-vous
 dignes de tout ce que nous avons fait pour
 vous, en ne vous écartant pas de la bonne
 voie ; songez toujours que Dieu est puissant,
 que c'est lui qui dirige toutes choses.

Le Général de Division,
 Signé BELLIARD.

القاهرة كتب الجيرتي يقول إنه « حضرت جماعة من عسكر القبط الذين
 كانوا ذهبوا بصحبة الفرنساوية فتخلفوا عنهم ورجعوا الى مصر
 (القاهرة) » (٢٨) .

ومؤدى كلام الجيرتي في الفقرات السابقة أن معظم عسكر الفيالق
 القبطي رفضوا السفر مع يعقوب إلى فرنسا ، وأن ذويهم أقاموا مناحة
 أمام نائب القائد العام حتى لا يرغم أحد من أبنائهم على السفر مع
 قائدهم السابق ، وأن من كانوا قد صحبوا العسكر المنسحبين (ربما
 لتأمين الطريق) قد عادوا بإرادتهم إلى العاصمة مرة أخرى .

ولا شك أنه مما ساعد على اطمئنان أبناء الأقليات ، وبخاصة
 الأقباط ، إلى البقاء في « مصر المحروسة » مفضلين ذلك على مخاطر
 السفر إلى المجهول صحبة يعقوب ومن معه حرص السلطات العثمانية التي
 دخلت القاهرة على تكرار المناداة بالأمان وتأكيد القول بالفعل ، في
 محاولة دائبة لاكتساب تأييد ساكني مصر جميعا ، والحيلولة دون
 حدوث أية اضطرابات طائفية تحل بالأمن ، مما أشاع جوا من التسامح
 والتجاوز عن الماضي والشعور بضرورة بدء صفحة جديدة في العلاقات
 بين مختلف طوائف السكان . فبعد أقل من شهر من توقيع اتفاقية الجلاء
 عن القاهرة « نودى بأن لا أحد يتعرض بالأذية لتصراني ولا يهودى
 سواء كان قبطيا أو روميا أو شاميا ، فإنهم من رعايا السلطان والماضى
 لا يعاد » (٢٩) .

ولم يقتصر الأمر على القاهرة بل امتدت هذه الحملة الدعائية الى
 الأقاليم ، مع التماس العذر لمن تعاون مع الفرنسيين . ويقول الجيرتي :
 « كتبت فرمانات (أى منشورات) وأرسلت إلى بلاد الشرقية والمنوفية
 والغربية مضمونها الكف عن أذية النصارى واليهود وأهل الذمة وعدم
 التعرض لهم وفي ضمنها آيات قرآنية وأحاديث نبوية والاعتذار عنهم بأن
 الحامل لهم على تداخلهم مع الفرنساوية صيانة أعراضهم
 وأموالهم » (٣٠) .

وأكثر من هذا فان العثمانيين بعد استعادتهم مصر من أيدي الفرنسيين حرصوا على ان يستعينوا بكتابة الأقباط وصيارفهم في تحصيل الضرائب المستحقة للحكومة كما كان الحال قبل الاحتلال الفرنسي ، وأن يعلنوا ذلك على الملأ حتى تعود الأمور إلى مجاريها بين كل الأطراف . ففي شهر جمادى الأولى ١٢١٦ (سبتمبر ١٨٠١) « قرئت فرمانات (أى منشورات) صحبة عثمان كتحدا (نائب الوالى العثمانى) وفيها التنويه بذكر أعيان الكتبة الأقباط والوصية بهم مثل جرجس الجوهري وراصف وملطى ، ومقدمهم في تحرير الأموال الميرية ... » (٣١) .

* * *

كانت السفن الإنجليزية بقيادة الأدميرال اللورد كيث (Keith) ترسو قرب شاطيء رشيد لتقل قوات حامية القاهرة بقيادة بليار ومن شاء أن يسافر معها إلى فرنسا ، بينما كان منو بقواته ما زال بمنطقة الاسكندرية .

ووصل بليار ورجاله المنسحبون من القاهرة إلى رشيد في أواخر يوليو ١٨٠١ ، ومعهم يعقوب ومن صحبه من المصريين والتمصريين . ورافق يعقوب من أسرته والدته وزوجته وابنته وأخوه حنين وابن أخته غبريال سيد اروس . وهناك وجد بليار رسالة من القبطان العثمانى حسن باشا يطلب إليه فيها أن يقنع المعلم يعقوب بالبقاء في مصر لكي تنتفع السلطات العثمانية التى استردت مصر بخدماته المالية ، كما انتفعت بخدمات بنى قومه من كبار الكتبة والصيارف . ولكن يعقوب لم يستجب لهذا الطلب رغم إلحاح القبطان وإغرائه له بالبقاء ، ورغم محاولة بليار لإقناعه . ولعله خشى من مؤامرة عثمانية (غير مستبعدة) على حياته ، جزاء موقفه وتصرفاته في أثناء الاحتلال الفرنسى للبلاد .

ركب يعقوب ومن معه الفرقاطة پالاس (Pallas) ، وهى السفينة

وأكثر من هذا فان العثمانيين بعد استعادتهم مصر من أيدي الفرنسيين حرصوا على ان يستعينوا بكتابة الأقباط وصيارفهم في تحصيل الضرائب المستحقة للحكومة كما كان الحال قبل الاحتلال الفرنسى ، وأن يعلنوا ذلك على الملأ حتى تعود الأمور إلى مجاريها بين كل الأطراف . ففي شهر جمادى الأولى ١٢١٦ (سبتمبر ١٨٠١) « قرئت فرمانات (أى منشورات) صحبة عثمان كتحدا (نائب الوالى العثمانى) وفيها التنويه بذكر أعيان الكتبة الأقباط والوصية بهم مثل جرجس الجوهري وراصف وملطى ، ومقدمهم في تحرير الأموال الميرية ... » (٣١) .

* * *

كانت السفن الإنجليزية بقيادة الأدميرال اللورد كيث (Keith) ترسو قرب شاطيء رشيد لتقل قوات حامية القاهرة بقيادة بليار ومن شاء أن يسافر معها إلى فرنسا ، بينما كان منو بقواته ما زال بمنطقة الاسكندرية .

ووصل بليار ورجاله المنسحبون من القاهرة إلى رشيد في أواخر يوليو ١٨٠١ ، ومعهم يعقوب ومن صحبه من المصريين والتمصريين . ورافق يعقوب من أسرته والدته وزوجته وابنته وأخوه حنين وابن أخته غبريال سيد اروس . وهناك وجد بليار رسالة من القبطان العثمانى حسن باشا يطلب إليه فيها أن يقنع المعلم يعقوب بالبقاء في مصر لكي تنتفع السلطات العثمانية التى استردت مصر بخدماته المالية ، كما انتفعت بخدمات بنى قومه من كبار الكتبة والصيارف . ولكن يعقوب لم يستجب لهذا الطلب رغم إلحاح القبطان وإغرائه له بالبقاء ، ورغم محاولة بليار لإقناعه . ولعله خشى من مؤامرة عثمانية (غير مستبعدة) على حياته ، جزاء موقفه وتصرفاته في أثناء الاحتلال الفرنسى للبلاد .

ركب يعقوب ومن معه الفرقاطة پالاس (Pallas) ، وهى السفينة

نفسها التي أفلت الجنرال بليار وعددا من جنوده وضباطه . وأبحرت
بالاس بقيادة القبطان جوزيف إدموندس (J. Edmonds) في
١٠ أغسطس متجهة أولا الى قبرص وساحل شبه جزيرة آسيا
الصغرى . وبعد أن أفلتت السفينة بيومين أصيب يعقوب بالحمى ،
وما لبث ان اشتد عليه المرض ومات في عرض البحر ، بعد أربعة أيام ،
في ١٦ أغسطس . وقد كانت آخر كلماته وهو يحتضر للجنرال بليار
ان يدفن مع صديقه ديسيه في قبر واحد !

ولم يلق ربان السفينة بجثة يعقوب الى البحر كالمعتاد في مثل هذه
الحالة ، بل استمع الى رجاء من معه فاحتفظ بالجثة في دن من الخمر
حتى وصلت السفينة الى مرسيليا . وهناك تم دفنها في جبانة المدينة .

قصة شروع الاسطول

لم تنته حكاية المعلم يعقوب بإبحاره من الشواطئ المصرية
ولا بوفاته ، وإنما على العكس بدأت بذلك قصة من أغرب القصص
التي ذيل بها تاريخ الحملة الفرنسية في مصر ، والتي شغلت لغرابتها عددا
من المؤرخين ، ذهبوا في تأويلها والتعليق عليها مذاهب شتى تأرجحت
بها بين الحقيقة والأسطورة . ويشارك يعقوب بطولته هذه القصة مغامر
أوروبي شاب اسمه تيودور لاسكاريس (T. Lascaris) . وهو شخصية
غامضة مهتزة ، ظهر على مسرح الأحداث مع يعقوب منذ أفلتت
السفينة بالاس بعد وفاة « المعلم » فمن هو لاسكاريس هذا ؟

ولد لاسكاريس عام ١٧٧٤ من أسرة إيطالية نبيلة (أى أنه كان
وقت الرحيل عن مصر في السابعة والعشرين من عمره) ، وانخرط هو
وأخ له في سلك فرسان القديس يوحنا بجزيرة مالطة ، التي غزاها
بونابرت وهو في طريقه إلى مصر عام ١٧٩٨ ، وانتزعاها من أيديهم
وقضى على سطوتهم (شكل ٥) . وهؤلاء الفرسان هم الذين أشار
اليهم بونابرت في منشوره العربي الأول إلى المصريين بكلمة
« الكواليرية » وهي تعريب للكلمة الإيطالية (Cavaleri) بمعنى



فرسان ، فقال بالنص « إن الفرسانوية هم أيضا مسلمون خالصون ، وإثباتا لذلك قد نزلوا في رومية الكبرى (كذا) وخرّبوا فيها كرسي البابا الذي كان يحث دائما النصارا (كذا) على محاربة الإسلام ثم قصدوا جزيرة مالطة وطرّدوا منها الكواليريّيه الذين كانوا يزعموا أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين .. » (شكل ٦) . وتقول بعض مراجع الحملة ، بل ويقول بونابرت نفسه في مراسلاته، إن الأخوين الفارسيين كانا مصابين بلون من الحوس وشذوذ الأهواء وإن كان بطلنا أخف حالة من أخيه الذي وصل به الأمر إلى حد الجنون .

كان تيودور لاسكاريس ذا عقل مغرق في الخيال ، وقد صحب حملة بونابرت الى مصر ، وهناك تقلّد بعض المناصب الإدارية في خدمة حكومة الحملة . وأطلق لاسكاريس لخياله العنان فأخذ يقترح على سلطات الحملة — وبخاصة أيام منو — عدة مشروعات غير عملية ولا مدروسة ، مثل إقامة عاصمة جديدة لمصر عند تفرع النيل برأس الدلتا يطلق عليها اسم « منو بوليس » تحليدا لاسم الجنرال منو ! ومثل تمكنه من ضبط مياه النيل واستزراع الصحراء .. الخ . وقد قدم لإحدى رسائله إلى عبد الله منو التي ذكر فيها بعض هذه المشروعات بدياةة تلقى الضوء على تكوينه العقلي وأسلوب تفكيره . قال لاسكاريس لمنو « إن القدر يبيء لكل إنسان في هذا العالم الطريق الذي يسلكه . فهناك من هيا له القدر أن يكون من الغزاه الفاتحين ، وهناك من قدر له أن يكون مجرد صانع أحذية . ومن الناس من قدر له أن يكون من مؤسسي الدول والمشرعين ، بينما قدر لآخرين أن يقيموا الأسر وينجبوا الأطفال .. الخ » أما هو فقد قدر له أن يكون « من أصحاب المشروعات » . ويقول « إنني كثيرا ما ارتفع بنفسي فوق عالم الواقع لكي أخطط لمشروعاتي ، وأترك لخيالي أن يذلل كل ما قد يعترضها من عقبات . آه ما أجمل الخيال ، إني لأجد فيه سعادتي » . ولكن منو لم يأخذ مشروعات لاسكاريس يوما مأخذ الجد ، بل كان كثيرا ما يحلو له ان يمازحه ويسخر من خيالاته ويعترض بما يتلبسه من

غير أنه ينبغي أن نتوقف عند مشروع واحد من مشروعات لاسكاريس الحالم ، لأنه كان محور القصة التي جرت أحداثها على سطح الفرقاطة بالاس بعد وفاة المعلم يعقوب ، ولأنه هو الذي جمع بين الرجلين منذ البداية على أرض مصر قبل مغادرتها ببضعة أشهر . لقد فكر لاسكاريس في أن تسليخ مصر من حكم العثمانيين وأن تتخلص كذلك من طغيان المماليك ، وذلك بمساعدة فرنسا وحماتها . ولكن ما دامت احتمالات جلاء الفرنسيين عن مصر قائمة (كان ذلك في عهد منو) ، فلا سبيل إلى تحقيق ذلك الهدف إلا بأن تدعم سلطات الحملة الفيالق القبطي بحيث تكون كفته هي الراجحة في أي قتال ينشب من أجل الاستيلاء على السلطة في البلاد من جانب العثمانيين أو المماليك . واستكمالاً لمشروعه اقترح لاسكاريس أن يترك الفرنسيون عند جلائهم عن مصر ذخيرة حربية كافية ، مع قوة من الجيش تنسحب جنوباً نحو إقليم النوبة معلنة رفضها الجلاء مع سائر قوات « جيش الشرق » . وسوف يسهل على هذه القوة فتح إقليم النوبة والاستقرار به حتى تستدعي الأمور انحدارها ثانية نحو الشمال لمساندة الفيالق القبطي . والغريب أن لاسكاريس استطاع أن يقنع بالخطوط العامة لمشروعه بعض الفرنسيين ، مثل المستشرق مارسيل والجنرال دييوي (حاكم القاهرة) ، هذا إلى جانب الجنرال يعقوب بالطبع (٣٣) .

ولكن الجنرال منو سخر كعادته من أحلام لاسكاريس ولم يقتنع مطلقاً بمشروعه . ويقول شفيق غريبال إنه حالت دون اقتناع القائد الفرنسي « قلة ثقته بالفارس وبالأقباط عامة ويعقوب خاصة » وإن كان هذا لم يمنع منو من أن يعضي في الإفادة من جهود كل من لاسكاريس ويعقوب . وتقول وثائق الحملة إن منو ألحق لاسكاريس بالعمل مع يعقوب لكي يعاونه في إنشاء شبكة تجسس على العثمانيين وحلفائهم تمتد



جسم القارصمة المرمم بالدهن اللؤلؤ ولده ولا عريك في سكة

من طرف جمهور العرسانوي القديم على السلس الفرنسيه
 ولعنه العرسانوي القديم من ايامه لغير القوي العرسانوي عجز
 اعلى مصر عجز ان من زمان مناجي الساجي الذي يسلطوا
 في البلاد المصريه بمعاينهم والى ولا جفاري من السادة العرسانوي
 وبقولهم لغارها بالبراع السلي والتمشق فمصر ان ساعه عومهم
 وسرنا من مة عومر كوله من السرة السعاليك اله جلوبس
 من جبال ان مسرا والكرصان ويسوا في التقليم الاحسن الذي
 يوسد في كروا من كلها ماما رة العالين الفارعي كل شي قد
 حتم دل لغنا دوشم
 وايضا القمصين قد بلولوا لكم اس ما راب في هذا الطرة ال
 بعند الله بعتم ممالك كعب سريم طه تصدونه وولوا الختيس
 اي ما نعت الكرم ان لحيما اسكن حكمه من يد الطلمين
 واي اعرف من السعاليك عند الله سجده وتعل واعلم عه
 صت وكفران العليم
 وقرا ايضا لهم ان عبي الناس مفاصين عند الله وان السلي
 الذي يترجم من معهم بعا هو العدل والمعادل والعلوم فدا
 رس السعاليك ما العدل والمعادل والقره الو معتزم عس
 الفرس ويترجم ايم وسلطوا ومعهم كلسا يملوا به صيانه
 النخا
 حيد بود ارض عديه نغ حفصه السعاليك والجوارى الاحمل
 والويل الشمس والمصاحف التي هذا حيلهم عا
 ثم نكب ثوبى لمرية الدرم السعاليك فليتيه قلب الو
 بعها لهم الله ففكر رة العالين مرورينا رسائل على العبر
 حونه نعل من اليوم صامتا لا يهمنه امكن اسال مصر من
 الفتحول في السلس المصريه ومن اسعصاب للقرن العلهي فاعلا
 والفعال يلما يسم محترقا الامور وسلفه يصلح حبال الاله
 حياها
 سايها في الاراضى لمرية كانت الفعه لا طعه والواجبات كرامه
 والفضل للفضل وما ازال لك الله الال الضحك وللم السعاليك
 لها الفصا واللعاب واليه والها العيراجيه وامهات البلد
 لولا لا شكم ان العرسانوي هم كلسا سلسين حلسين وحيانا
 لذلك قد ولوا في رويبه الكبر وخربوا بها عرسي الهيا الذي ك
 مت داهما السعاليك على حيايه السعاليك فتمدوا حربا سلطه وطردوا
 منها القارصمة الذي كانا برعوا ان الله حيل يطلب منهم عقابله

السلس ومع ذلك العرسانوي في كل وقت من الارضه ماروا
 السلس السعاليك لمره السعاليك المعناني واصفا عقابله ادم
 لله ملحه والفقير للسعاليك اعتمدا من الهاء السعاليك عجز
 سمعته لمره خا طاموا السعاليك لجمع انهم
 كوني في القايي لخال مصر العالين وبعوا معنا لا تفهمه وصلح
 حلالهم وعل منهم شوي ايما الفتيين بعوا في مساعدهم
 عير سايي لمد من العرمانوي للمارسى فدا يترجموا بالاعرف
 بعساروا الهيا بعقل قلب
 احسن الويل في القيل الفتيين بعساروا مع السعاليك بعساروم
 في الحرب طمينا فدا يترجموا طرين القايي ولا يبعي منهم اثر
 السادة الاول
 جميع العرمانوي الرافعي دابرا نوبه بلده سامعه من اللوايح التي يتر
 بها العسكر العرمانوي تولين طمينا فدا ترسل لمره بعض
 وحدا من مدحا لعينا يترجموا المشار اليه ادم طاموا وانهم تصورا
 السعاليك العرمانوي الذي هو ايض وكمل واعمر
 السادة الثاني
 كل نره التي تدير على العسكر العرمانوي تدمر به بلدا
 السادة الثالث
 كل نره التي يذبح للعسكر العرمانوي الواجب صليها نوب
 السعاليك العرمانوي وايضا تص صلاه السلطان العنقل
 صنادم عه
 السادة الرابع
 اللوايح في كل بلد لعينا حاله جميع الارضه والنوب والسلك
 بلع السعاليك رسايهم اللوايح الاله السعاليك يسبح انا من منها
 السادة الخامس
 الواجب على اللوايح والعباد واجبه ايم بالاروا وطاههم
 وصل كل واحد من اهل البلد انه يعنى في سكتة مقدس وكذلك
 كعب العالين فليد في اللوايح على جهاده ولليرين بلعهم
 ليعكروا فعل الله سبحانه وتعل من عرسي ورس السعاليك فهاين
 بسوت عا ادم الله لخال السعاليك المعناني ادم الله اجسائل
 العسكر العرمانوي لسي الله السعاليك واصل على الاله السعاليك
 عرمانوي سكتة في ع شهر سجد
 سكتة من اقدم جمهور العرمانوي بعني في اواخر عرمانوي
 سكتة عه

إلى سوريا . وبعث القائد برسالة إلى يعقوب تتضمن هذا المعنى ، وكان ذلك في مارس ١٨٠١ عندما تأزمت أمور الحملة وأوشك الفرنسيون على تسليم مصر إلى العثمانيين . وهكذا لازم لاسكاريس يعقوب منذ ذلك الحين حتى غادرا مصر سوريا ، أى طيلة خمسة شهور . وكان لهذه العشرة ولاشك أثرها في القصة التي جرت أحداثها فوق سطح السفينة بالاس .

مسرحية بحرية

تبدأ هذه الأحداث بعدة لقاءات بين يعقوب وقبطان السفينة ، الذي قدر مكانة يعقوب في قومه ولدى الفرنسيين على السواء ، فخصه بشيء من الحفاوة والتكريم . وفي هذه اللقاءات تبادل الرجلان عدة أحاديث كان لاسكاريس يقوم خلالها بدور المترجم بينهما . وقد دارت موضوعات الأحاديث حول مصر ، حاضرها ومستقبلها . وفيها أذان يعقوب من خلال مترجمه الحكم العثماني لمصر ووصمه بأسوأ النعوت . وقال إنه أيد الاحتلال الفرنسي للتخفيف مما حاق بمواطنيه من أذى وما وقع عليهم من ظلم واضطهاد . وأضاف يعقوب للقبطان إدموندس من خلال لاسكاريس إنه غادر بلاده سعياً وراء تحقيق استقلالها عن الدولة العثمانية . ووضح أن مضمون هذا الكلام يشبه أفكار لاسكاريس التي سبق أن عبر عنها في مشروعه الذي قدمه إلى الجنرال منو قبل أن يلتحق بالعمل مع يعقوب .

ولما كان ميزان القوى قد مال ، وانتهى الوجود الفرنسي بمصر على يد العثمانيين والإنجليز معا ، ولما كان يعقوب يبصر هو ومن معه على سفينة إنجليزية ويتحدث إلى قائدها الذي أكرمه وكان به حفياً ، فقد رأى هو

بالفرنسية من عدة أجزاء . وسلمها للربان الإنجليزي . وهى مؤرخة ٢١ سبتمبر ١٨٠١ بعد أن كانت « بالاس » قد ألفت مراسيها فى هذا الميناء ببضعة أيام .

وتقع مذكرة لاسكاريس فى إحدى عشرة فقرة مرقمة ، تتناول كل منها جزئية من جزئيات الموضوع . ويلفت النظر فى هذه المذكرة أن بعض العبارات تتخللها فراغات ويبدو أن الكاتب لم يجد الكلمات المناسبة للمتها ، وأن عبارات أخرى قد أكدها صاحبها بوضع خط تحتها .

قدم لاسكاريس . ل فقرات مذكرته بقوله : « مذكرات مرفوعة للقبطان جوزيف إدموندس لتذكيره مستقبلا بالنقاط الرئيسة لأحاديثنا السياسية على ظهر سفينته » . ويمكن تلخيص أهم ما تضمنته هذه المذكرات من نقاط وإشارات فيما يلى :

١ - ناشد لاسكاريس إدموندس أن يؤيد وجهة نظره عند عرض الموضوع على قائده ، حتى يكون هذا سنداً له لدى الحكومة البريطانية .

٢ - قال إن مصر جديرة بأن تؤيد الحكومات الأوربية مشروع الوفد الذى فوضه المصريون ، إن لم يكن من أجل ماضيها العريق واعترافاً بفضلها على الحضارة ، فعلى الأقل من قبيل العطف عليها .

٣ - أشار الى احتمال أن تتقدم حكومة الجمهورية الفرنسية نفسها فيما بعد إلى الحكومة البريطانية باقتراح تؤيد فيه الآراء الموضحة بالمذكرة . وإذا حدث ذلك فانه سوف يكون بتأثير الوفد المصرى فى باريس ، مع ملاحظة أن تحقيق هذا المشروع ليس فى صالح فرنسا بقدر ما هو فى صالح بريطانيا .

أو مترجمه أو هما معا — أن من الكياسة ألا يشير إلى فرنسا المهزومة بوصفها القوة الأوربية التى سوف يعتمد عليها فى تحقيق انسلاخ مصر عن الدولة العثمانية ، وأن من حسن السياسة أن يحول الدفة مع تحول التيار نحو بريطانيا . ومن ثم قال يعقوب فى أحاديثه مع الربان الإنجليزي إنه عندما رأى أن يعتمد فى تحقيق غايته على فرنسا لم يكن يدرك مدى قوة بريطانيا . أما الآن فقد أيقن أن الفرنسيين خدعوا المصريين وأن مواطنيه يحتقرونهم اليوم كما كانوا يحتقرون الأتراك من قبل ، وأن تحقيق ما يسعى إليه مستحيل بدون تأييد الحكومة الإنجليزية !! ومن ثم فهو يرجو القبطان إدموندس أن يبلغ هذا الموضوع إلى رئيسه قائد البحرية ليرفعه بمعرفته إلى حكومته .

وأراد لاسكاريس أن يضى على هذه الأحاديث التى لم تستمر لأكثر من يومين (بين إبحار السفينة ومرض يعقوب) أهمية خاصة ويسبغ عليها طابعا رحميا ، فأضاف إلى ما ذكره يعقوب من خلاله لإدموندس أن الجنرال يعقوب إنما يسافر على رأس « وفد مصرى » اختاره أعيان البلاد ليقاوض الحكومات الأوربية المعنية فى موضوع استقلال مصر .

* * *

ويبدأ الفصل الثانى من القصة بعد وفاة يعقوب ، عندما قرر لاسكاريس ، وقد انفرد بمسرح الأحداث ، أن الوفد المصرى باق رغم موت رئيسه . واتفق مع إدموندس على أن يعد له مذكرة يسجل بها الموضوعات التى دار حولها الحديث بينه وبين يعقوب قبل موته ، لكى يرفعها إدموندس إلى حكومته عن طريق رئيسه الأدميرال اللورد كيث . وتعهد له إدموندس بذلك ، وبأن يحفظ الأمر سرا حتى لا يتسرب الى جهة قد تفسد الخطة .

وقد عكف لاسكاريس بالفعل فى ميناء طولون على كتابة مذكرة

الاستبداد التركي . فلتكن الحكومة الجديدة إذا عادلة حازمة وطنية كما كانت حكومة شيخ العرب همام في الصعيد (التي قضى عليها على بك الكبير قبل الحملة الفرنسية بنحو ثلاثين عاما) .

٨ - من حيث الدفاع قال إنه ليس من المتوقع أن تهاجم الدول الأوربية مصر ، ولكن هذه الدول تستطيع أن تردّ عن مصر عدوان الأتراك والمماليك . وفي الوقت نفسه يستطيع المصريون أن يستخدموا على حسابهم قوة دفاع أجنبية يتراوح عددها بين ١٢ و ١٥ ألف رجل يكفون تماما لحماية مصر من الأتراك والمماليك جميعا ، وتكون هذه القوة نواة لجيش وطني . ثم إنه يمكن شراء ذم العثمانيين بالمال حتى لا يفكروا في الهجوم على مصر .

٩ - من حيث الأمن الداخلي قال إن الشعب في مصر ينقسم إلى عدة طوائف ، وإن هذا يتيح الوسائل لدفع هذه الطوائف بعضها ببعض لحفظ التوازن بينها . وأكد أن الوفد المصري على صلوات بهذه الطوائف جميعا دون ما تحيز ، وأن هذه الصلوات لا يعلم بها جهاز الحكم التركي المستبد ، وإلا كانت العاقبة وخيمة على « الأخوة دعاة الاستقلال » .

١٠ - أكد أن المصريين عامة ، ووفدهم لدى الحكومات الأوربية بوجه خاص ، سيبدلون كل ما بوسعهم من جهد ليتحرروا من ذلك النير الذي يثقل كاهل بلادهم التعمسة ، وأن المشروع السياسي الذي يسعى الوفد لتحقيقه هو في صالح الدول الأوربية جميعا ، بل وفي صالح تركيا كذلك .

١١ - قال انه اذا خاب سعى المصريين ولم يحقق اتفاق الصلح العام أملهم ، وعاد العثمانيون إلى امتلاك مصر ، فإن المهاجرين

٤ - حث الإنجليز على أن يتهزوا هذه الفرصة التاريخية التي توشك فيها الإمبراطورية العثمانية أن تتداعى من كل جانب ، فيضمونها لأنفسهم السيطرة على مصر . وإذا كان من المستحيل على بريطانيا أن تستعمر مصر ، كما استحال ذلك على فرنسا من قبل ، فالأنسب أن تكون مصر مستقلة عن الدولة العثمانية ، وفي الوقت نفسه خاضعة لنفوذ بريطانيا سيدة البحار المحيطة بمصر . ولا شك أن بريطانيا بحكم مركزها الخاص في الهند سوف تفيد أكبر فائدة من السيطرة على التجارة مع مصر الغنية بحاصلاتها الوفيرة وبتجارها مع قلب افريقيا .

٥ - أكد أهمية إحكام النفوذ البريطاني لا مجرد السيطرة التجارية على مصر . فقد تعود فرنسا كما كانت حليفة للباب العالي ، وعندئذ قد يتخذ العثمانيون من الاجراءات ما يؤدي الى تحطيم التجارة الانجليزية في الشام والبحر الأحمر .

٦ - ندد بحكم الفرنسيين لمصر في أثناء احتلالهم لها ، وأشار الى ما سبق أن تردد في الأحاديث مع إدموندس من كراهة المصريين لهم نتيجة لذلك . ثم أكد أن مصر المستقلة ، بعد أن أدرك أهلها حقيقة الإنجليز ، لا يمكن إلا أن تكون موالية لبريطانيا .

٧ - اعتذر عن عدم الخوض في تفصيلات نظام الحكم لمصر المستقلة . فالتغيير المطلوب لن يكون نتيجة ثورة تقوم على أساس من آراء أو مبادئ معينة ، وإنما سيكون وضعا تفرضه قوة قاهرة على شعب مسالم جاهل لا يكاد يحرك أفراده سوى عاطفتي المصلحة والخوف . ومن ثم فيكفي أن ترفع الحكومة الجديدة قليلا من المستوى المادي للشعب فتنال تأييده ومساندته . ولا شك أن أى نظام للحكم سيكون أفضل من

فنست (S. Vincent) وزير البحرية البريطانية . وقد أثر إدموندس أن يرفع مذكرة لاسكاريس رأسا الى الوزير متخطيا رئيسه المباشر اللورد كيث ، مع أن هذا هو ما كان مفروضا أن يحدث ، وهو نفسه ما طلبه يعقوب و لاسكاريس من إدموندس ، وذلك أخذا بالأحوط وإبراء لذمته ووفاء بعهده . وقد برر هذا التخطي الإداري في رسالته إلى الوزير في بدايتها ونهايتها . لقد بدأها بقوله « استبحت لنفسى أن أرفع إليكم مباشرة المذكرات المرفقة بكتايب هذا اعتقادا منى بأنه قد يكون من المفيد لحكومة بلادى أن تعلم أن بعض الأشخاص الذين يطلقون على أنفسهم الوفد المصرى موجودون الآن في باريس » . وختم الرسالة بقوله « ... رأيت من الضرورى إبلاغكم رأسا بهذه المذكرات والمعلومات ، اذ قد يمضى بعض الوقت قبل أن نتاح لى فرصة إبلاغها أولا الى قائدى العام اللورد كيث ، وآمل أن تفضلوا فتقدروا مسلكى هذا » .

ضمّن القبطان إدموندس رسالته التى قدم بها المذكرات إلى الوزير خلاصة موجزة لما حدث به يعقوب ، بعد أن أشار إلى أنه من زعماء طائفة الأقباط وله فيها نفوذ كبير ، وأن الفرنسيين جعلوه قائدا لقبيلت من أبناء طائفته لينالوا تأييده . وأكد أنه أعطى موثقا محدثه بالألا يستخدم هو أو تستخدم الحكومة البريطانية ما أبلغه به استخداما يمكن أن يسبب إليه هو ومن معه . ولكن إدموندس أبدى تحفظه إزاء نقطتين :

١ - فقد تشكك فيما ذكره له لاسكاريس الذى كان يترجم بينه وبين محدثه من أن يعقوب يرأس وفدا فوضه أعيان مصر لمفاوضة الدول الأوروبية فى استقلال هذا البلد « .. لا يمكننى تقدير مدى ما يحمله (الوفد) من تفويض وما يملكه من صلاحيات » .

٢ - وكذلك تشكك فى حقيقة الدور الذى يقوم به لاسكاريس . فهل هو عضو فى هذا (الوفد) أم أنه مجرد سكرتير مترجم

المصريين يرجون أن تدبر لهم الدول المتعاقدة ضمانا يقيمهم شر انتقام السلطات التركية إذا ما رجعوا إلى وطنهم .

١٢ - حذر من تسرب خبر هذه « المفاوضات » إلى فرنسا أو إلى أى طرف آخر يمكن أن يعرقل ما تمهد له من « مفاوضات » . فخطة الوفد هى إقناع الجانب الإنجليزى أولا بمشروعه ، والسعى لأن تكون فرنسا نفسها هى البادئة بعرض المقترحات الأولى على بريطانيا ... وبذلك لا يتعرض المشروع لرفض الإنجليز بسبب العداء بينهم وبين الفرنسيين ، أو بسبب دسيسة من جانب فرنسا .

١٣ - رتب طريقة الاتصال بالوفد المصرى فى باريس باستخدام « سفرة » خاصة ، وعن طريق صديق للوفد يقيم بأوروبا . (وهو مصرى قبلى اسمه انطون قسيس عمل طويلا فى خدمة اميراطورية النمسا مستظلا بحمايتها فى مصر ، ثم استقر فى تريستا وأصبح يدعى الكونت انطون كاسيس : A. Cassis) .

ويتهى الفصل الثانى من القصة بإقلاع ادموندس بسفينته الى جزيرة مينورقا غربى البحر المتوسط ، بعد أن يكون قد أدى المهمة الأساسية لرحلته ، فأفرغ حمولته البشرية بما فيها جثمان الجنرال يعقوب على الأرض الفرنسية .

* * *

ويتسع مسرح الأحداث فى الفصل الثالث ليمتد من ميناء مرسيليا فى جنوب فرنسا إلى جزيرة مينورقا التى رسا بها إدموندس . فعلى ظهر السفينة بالاس هناك أوفى القبطان الإنجليزى بما وعد ، فرفع مذكرة لاسكاريس مرفقة برسالة مؤرخة ٤ أكتوبر دجها إلى إيرل سانت

ليونابرت « سيضعون لمصر من النظم ما يرضاه لها القنصل الأول .

— تلقى لليونابرت ومناشدة له أن يتنزل فيمد يد المساعدة « للمصريين التمساء » الذين حطم في الماضي أغلالهم ثم عادوا ينوءون بها من جديد ، من أجل مجده ولمصلحة فرنسا .

— إشارة إلى « الفتح العظيم » الذى ناله بونابرت ثم فقده (بالجللاء عن مصر) ، وتأکید أن القائد الفرنسى إذا أيد في اتفاقيات الصلح أن تكون مصر مستقلة ، فسوف يعوض هذا الموقف خسارته تلك مائة مرة .

ولم يكتف لاسكاريس بهذه المذكرة التى حاول بها إقامة جسر بين المهاجرين المصريين والحكومة القنصلية في باريس ، وإنما أرفدها بمذكرة أخرى إلى تاليران (Talleyrand) وزير الخارجية الفرنسية وقعها كذلك « نمر افندى » . وفي هذه المذكرة :

— إعلان لولاء الوفد المصرى — الذى فقد زعيمه يعقوب — وجهه للجمهورية الفرنسية .

— رجاء إلى الوزير الفرنسى بأن يتفضل ويضع الوفد ومجموعة المهاجرين في كنفه وتحت رعايته .

— تأكيد أن الوفد المصرى يمثل شعب مصر تمثيلا كاملا ، ويعبر عن أماني هذا الشعب وما أجمع عليه .

— تحديد مطالب المصريين في نقطتين : سحق القوة الغاشمة التى عادت تستبد بهم من جديد ، والاعتماد على فرنسا في تحقيق هدفهم الذى يخدم في الوقت نفسه مصلحة الجمهورية الفرنسية ذاتها .

— تكرار ما تضمنته المذكرة الموجهة إلى القنصل الأول من أن فرنسا تستطيع عن طريق الاستماع إلى هذا الوفد قبل توقيع اتفاق الصلح مع بريطانيا ، أن تعوض ما خسرت بالجللاء عن مصر ، وأن تحتفظ للأبد

ليعقوب . ثم وصف لاسكاريس بأنه رجل « مغرق في الخيال » .

وهاتان الوثيقتان (مذكرة لاسكاريس ورسالة إدموندس) مازالتا محفوظتين بوزارة الخارجية البريطانية . وكان أول من أشار اليهما الأستاذ شفيق غربال وأول من قدمهما بتصيهما (في كتاب طبع بمصر) المؤرخ الفرنسى جورج دوان (G. Douin) (٣٤) .

أما على الطرف الآخر من المسرح ، فقد شغل المهاجرون الذين نزلوا إلى الشاطئ الفرنسى بتشجيع جثمان يعقوب إلى مثواه الأخير في مقبرة بمارسيليا . وبينما كانوا يتممون الإجراءات الصحية بمحجر الميناء كان لاسكاريس يعد لمشهد جديد . فقد بدأ يخطو خطوة أخرى يكمل بها محاولته الأولى مع الحكومة الإنجليزية ، فحرر مذكرة بالفرنسية كذلك إلى « القنصل الأول » بونابرت . ولكنه للحظ لم يوقع عليها ، وإنما جعل التوقيع لشخص آخر من جماعة المهاجرين المصريين هو « نمر افندى » ، وذلك « نيابة عن الوفد المصرى » . وصاحب هذه الشخصية التى ظهرت فجأة على مسرح الأحداث والتي تستر وراءها لاسكاريس هو سورى مسيحي كان يعمل مترجما للغات الشرقية في مصر ، واسمه لطفى (أو لطف الله) نمر (٣٥) .

وتتضمن هذه المذكرة الموجهة « إلى القنصل الأول للجمهورية الفرنسية من الوفد المصرى الذى يكن له أعظم التقدير » النقاط التالية :

— إشادة بتاريخ مصر القديم وحضارتها التى كان يتلقى عنها دروس العلم والعرفان مشرعو الإغريق (مثل سولون) .

— تنويه بإنجازات الجمهورية الفرنسية الناشئة في الحرب والسلم ، وبخاصة تحت حكم بونابرت .

— إن الوفد المصرى الذى فوضه المصريون « الباقون على ولائهم

بنفوذها السياسي في الشرق .

— تأكيد أن فرنسا يمكنها أن تمد نفوذها نحو أواسط أفريقيا بواسطة مصر التي لن تكون إلا موالية لها « وهكذا يتحول ترككم مصر للإنجليز من نكبة إلى سبب مجد للقنصل الأول ومصدر رفاهية للأقاليم الفرنسية .. » !

— مناقشة الوزير أن يستقبل الوفد المصري في باريس ويستمع إلى توصيات ما أجمله في رسالته ، وأن يتفضل فيعمل على أن تصل رسالته الأخرى المرفوعة إلى القنصل الأول ، وأن ينتزل هذا بالرغم من ثمين وقته فيطلع عليها .

وهاتان المذكرتان أو الرسالتان ما زالتا محفوظتين بوزارة الخارجية الفرنسية . وقد ورد ذكرهما لأول مرة في مقال كتبه المؤرخ الفرنسي أوربان (Auriant) عن لاسكاريس عام ١٩٢٤ (٣٦) ، ثم ترجمهما بعد بضع سنوات الأستاذ شفيق غربال وألحقهما ببحثه المنشور إليه من قبل .

* * *

تلك المذكرات ، سواء ما اتخذ منها طريقه إلى لندن أو ما أرسل إلى باريس تكوّن في مجموعها ما سماه عدد من المؤرخين « مشروع استقلال مصر » ، ونسوه إلى الجنرال يعقوب رئيس الوفد المصري . ومن ثم رأى بعضهم أن يجدوا هذا الرجل لأنه سبق عصره بأكثر من قرن فحسب في جعبته وهو يغادر مصر « مشروعا خطيرا هو مشروع الاستقلال الأول » .

وبادئ ذي بدء ينبغي أن نحدد صاحب هذا المشروع . فهل هو يعقوب الذي مرض بعد يومين فقط من إبحار السفينة التي غادر مصر

على ظهرها ؟ أم هو لاسكاريس صاحبه ومترجمه الذي نقل فحوى أحاديثه إلى قبطان السفينة ثم صاغها في تلك المذكرات فيما بعد ؟ أم اشترك الرجلان في هذا العمل ؟ ثم ... هل كان هناك حقا « وفد مصرى » ضمن جماعة المهاجرين من مصر ؟ وهل هذا الوفد مفوض من قبل الشعب المصري أو من قبل قطاعات معينة فيه ؟ ومن الذي فوضه أو أوفده بالضبط ؟ لتأمل ما يلي من ملاحظات ، فعمل فيها ما يجيب عن هذه التساؤلات :

١ - إذا كان يعقوب قد عبر عن أمنيته في استقلال مصر أو بعبارة أصح في انسلاخها عن الدولة العثمانية ، فليس هذا بمستبعد على رجل كان له ما رأينا من نزعات وطموحات ومواقف . غير أن المشروع المدون يتضمن بعض الأفكار الفلسفية والحفائق التاريخية والسياسية التي تدل على شيء من خلفية ثقافية تحسب أن يعقوب كان يحكم نشأته وتكوينه أبعدها ما يكون عن اكتسابها . وتكفي الإشارة إلى ما ورد بالمذكرات عن حضارة مصر القديمة وصلتها بالحضارة اليونانية ، وعن المشرع سولون ، وعلاقات مصر بأفريقيا ، ومركز بريطانيا بالهند ، ونظام الحكم الفرنسي .. الخ ، ليرجع لدينا أن وراء هذا المشروع أفكار لاسكاريس لا يعقوب .

٢ - إن لاسكاريس كما علمنا هو الذي سبق أن تقدم إلى الجنرال منو بمشروع مشابه لاستقلال مصر لم يقتنع به القائد الفرنسي وأشجع صاحبه سخرية .

٣ - إن المشروع بما رده من أوهام وما قدمه من مقترحات غير واقعية أكثر اتفاقا وشخصية لاسكاريس المسرف في الخيال الذي « يعيش في عالم كامل من أحلام اليقظة » وذلك مثل إنشاء القوة الأجنبية المرتزقة ، واتفاق الدول الأوروبية على ضمان استقلال

٧ - إن إرسال إدموندس لمذكرات لاسكاريس إلى رئيسه الأعلى مباشرة لا تدل أبداً على اقتناعه بأنها تتضمن حديث يعقوب الذى أخذه « مأخذ الجذ الخضير » كما يقول الدكتور لويس عوض (٣٧). فلم يكن في وسع القبطان الإنجليزي أن يغفل هذه المذكرات مهما كانت شكوكه في جديتها أو أهميتها ، فهو جندي رأى من واجبه أن يحظر سلطات بلاده بما حدث على ظهر سفينة في تلك الأيام الحرجة ، وبخاصة أنه لم تكن لديه أية خبرة أو معرفة سياسية بخلفية الأحداث وتطورها . ومع هذا فقد أعرب إدموندس عن تحفظه (أكثر من مرة) إزاء صفة لاسكاريس وحقيقة العلاقة بينه وبين المصريين المهاجرين ، وإزاء مدى ما بيد الوفد المصرى من تفويض . كما وصف لاسكاريس بأنه رجل حالم واسع الخيال . وإذا كان إدموندس قد ذكر في رسالته لرئيسه أن الجنرال يعقوب أبلغه بكذا أو أعرب له عن كذا فلم يكن - كما نعلم - ينقل عنه مباشرة ، وإنما كان يردد ما ذكره له المترجم لاسكاريس . وليس من المستبعد أبداً ، بعد ما تبيننا من غرابة أطوار لاسكاريس ، أن يكون قد حرف أحاديث يعقوب لكي تلائم أغراضه . ولو كان إدموندس قد علم بما يدبره لاسكاريس من اتصال مضاد بالمستولين الفرنسيين لما أعار مذكرته إلى الوزير البريطانى أدنى اهتمام ، ولأصبح أكثر إدراكاً لحقيقة ذلك الفارس الخيالى الذى يبارز طواحين الهواء !

٨ - لا يوجد أى دليل على أن مجموعة المهاجرين من مصر كانت تضم وفداً مفوضاً من الشعب أو من أية طائفة ذات ثقل من طوائفه . فإذا كان علماء الأزهر ومن إليهم مثلاً قد فوضوا من بين المهاجرين من يتحدث باسمهم ، فلم يكن الجبرتي ليغفل تسجيل هذا الحدث ، وهو الذى سجل من أحداث تلك الأيام

مصر ، وتقدير شعب مصر للإنجليز وإدراكه لقوتهم ، وأن مصر المستقلة لا يمكن إلا أن تكون موالية لبريطانيا !

٤ - إن يعقوب الذى تعاون مع الفرنسيين في أثناء احتلالهم لمصر إلى أقصى حد كما رأينا ، وأحبهم وفضل أن يترك بلاده ويلحق بهم عند جلائهم عنها ، لا يعقل أن يتحول فجأة إلى ذم هؤلاء الفرنسيين والتنديد بأساليبهم في حكم مصر ، وإلى الإعجاب ببريطانيا وإظهار الولاء لها ، ومناشدتها العسل على تحقيق استقلال بلاده ، ثم محاولة تأليبها على فرنسا . وحتى إذا سلمنا جدلاً بأن يعقوب قد تحول بولائه فعلاً إلى الانجليز ، فكيف يمكن أن يكون في الوقت نفسه وراء المذكرتين المرسلتين إلى بونايرت وتاليران ؟

٥ - إن التناقض البين ، والذى يثير السخرية ، بين ما كتبه لاسكاريس للإنجليز وما كتبه للفرنسيين يدعو إلى الشك في جدية الموضوع . فلا يقبل العقل أن يتصرف مفاوض سياسى يتحدث عن استقلال شعب هذا التصرف البهلوانى الذى يتفق تماماً وشخصية لاسكاريس لا شخصية يعقوب الذى لم يكن تخياله يوماً ، بالرغم من طموحاته ، في جموح خيال صاحبه . وإنما كان دائماً بسلوكه وتصرفاته رجلاً جريئاً معتداً بنفسه تغلب عليه التزعة العملية ، وإن كانت أحياناً غير متبصرة .

٦ - إن ملازمة لاسكاريس ليعقوب بضعة أشهر قبل جلاء الحملة لا تعنى مطلقاً أنه عبّر في مذكراته تعبيراً دقيقاً عن آراء يعقوب ، كما وهم بعض المؤرخين ، فلم تكن ظروف مصر في تلك الأيام لتنبئ عن تلك التغيرات والأحداث التى وقعت فيما بعد ، حتى يختر على بال رجل مثل يعقوب أن ينصل بالانجليز ليعرض عليهم مشروعاً ما .

الأقباط ونصارى الشام والمرترقة وبعض المسلمين الذين يخشون مواجهة سلطات الحكم العائد كعبد العال أغا الأنكشارية . ومثل هؤلاء لا يمكن أن يعتبروا بأى مقياس وفدا مصريا يتفاوض من أجل استقلال مصر .

ومن هنا فالحديث عن « وفد مصرى » يمثل مختلف طوائف مصر ويتزعمه يعقوب ويتفاوض من أجل استقلال البلاد يغدو مقولة واهية تفتقر إلى السند والبرهان .

ما هو أقل أهمية بكثير . وليس هناك ما يدل على حصول يعقوب على تفويض من زعماء القبط . فلم تكن لأى منهم اهتمامات سياسية أو تطلعات مثل تطلعات زميلهم الطموح ، وإنما كانوا دائما يؤثرون السلامة والبعد عن المشكلات . ولم تكن مثل هذه الخطوة كذلك لتفوت مؤرخا كالجيرى أو من أرخوا للحملة من الفرنسيين . لقد اجتمع يعقوب قبل رحيله فعلا بعدد من زملائه كبار الأقباط . ويقول الدكتور لويس عوض معلقا على ذلك بما يوحى بربط هذا الاجتماع بمشروع الاستقلال « ولا نعلم على وجه التحقيق ماذا دار في هذا الاجتماع ، وهل كانت له صبغة سياسية أم أنه كان قاصرا على مناقشة المسائل المالية ، ولعله أطلعهم على مشروعه ونوابه^(٣٨) » . هذا مع أن الاستاذ شفيق غربال أثبت نقلا عن حمصى وغيره أن هذا الاجتماع كان لتفويض يعقوب في مطالبة الحكومة الفرنسية ببرد مبلغ من المال أقرضه كبار الأقباط للجنرال منو عندما تأزمت أحوال الحملة في أواخر أيامها^(٣٩) .

كان يعقوب في حقيقة الأمر هاربا أو مهاجرا من مصر ، ولم تكن له في وطنه قوة أو شعبية يعتمد عليها وتسند في موضوع خطير كالتفاوض من أجل الاستقلال مع القوتين العظميين في ذلك الوقت . حتى فيلقه القبطى كان قد تشتت بددا كما رأينا قبل رحيله . وأقصى ما كان يتصور أن يراود يعقوب عندئذ من آمانيات شخصية هو أن تسلم مصر عن دولة الخلافة العثمانية ، وأن تصبح تابعة لدولة كبرى تحتضن أقليتها وتزود عنهم سطوة الأغلبية .

١٠ - كان المهاجرون الذين رحلوا في ذيل الحملة الفرنسية أشتاتا من

نهاية الأحداث

كيف انتهت أحداث هذه القصة المثيرة؟ إن هذا التساؤل الذي يفرض نفسه الآن يتطلب أن نجيب عن شقين: ما الذي أدت إليه هذه الاتصالات، أو بالأحرى محاولات الاتصال، مع حكومتى القوتين العنصريين في ذلك الزمان، بريطانيا وفرنسا؟ ثم... ماذا كان مصير أصحابها، ومعهم أولئك الذين خرجوا من مصر مهاجرين إلى مجهول؟

● إن مذكرة لاسكاريس المرفوعة إلى الحكومة البريطانية، بالرغم مما توافرها من ضمانات إجرائية، لم يكن لها أى أثر أو صدق على أى مستوى. فقد أهمل أمرها تماما، واكتفى مكتب وزير البحرية البريطانية بتحويلها « للإيداع في محفوظات وزارة الخارجية ». هذا بالرغم من أن بريطانيا لم تكف، منذ نجحت مع العثمانيين في إخراج الفرنسيين من مصر، عن السعي لمحاولة احتلالها أو إقرار نفوذها فيها. فقد بقى الأسطول الإنجليزي في المياه المصرية وبنيت بعض القوات الإنجليزية في مصر حتى سنة ١٨٠٣. وفي الوقت نفسه بذلت بريطانيا جهودها الدبلوماسية مع الباب العالي لمنع وقوع مصر بالذات في يد

فرنسا أو غيرها. ولجأت بريطانيا كذلك إلى استمالة عدد من المماليك الذين عادوا من سوريا مع القوات العثمانية إلى جانبها، فتكون من هؤلاء — لا من الأقباط أو غيرهم من الأقليات — حزب موال للإنجليز بزعامة محمد بك الألفى. وقد سافر الألفى مع القوات الإنجليزية المنسحبة، وبقي في لندن مدة اتفق خلالها مع المسئولين البريطانيين على أن يمكنوه من تولي السلطة في مصر مقابل منحهم بعض الامتيازات، مثل حماية السواحل المصرية. غير أن حزب الألفى فشل في تحقيق هذا المخطط، واستقر الأمر في مصر لمحمد علي. وأخيرا وجهت بريطانيا حملتها المعروفة بقيادة فريزر لاحتلال مصر عام ١٨٠٧، ولكنها ردت على أعقابها. وظلت بريطانيا — كما نعلم — طوال معظم سنوات القرن التاسع عشر تعمل على احتلال مصر وتقاوم النفوذ الفرنسي فيها، حتى نجحت في احتلالها عام ١٨٨٢.

وفي فرنسا لم يكن حظ مذكري لاسكاريس بأفضل من حظ مذكرته المطولة إلى الحكومة البريطانية. فلم يبد بونايرت ولا تاليران أدنى اهتمام بالرسالتين ولم يأخذوا ما جاء فيهما مأخذ الجد، وتم تحويلهما بدورهما إلى محفوظات وزارة الخارجية. وهذا أيضا بالرغم من جهود فرنسا المضادة لجهود بريطانيا في محاولة الاستئثار بشيء من النفوذ في مصر. فقد كان لفرنسا بدورها حزب من المماليك بزعامة عثمان بك البرديسي، ولكن حظه لم يكن بأفضل من حظ حزب الألفى في مواجهة نجم محمد علي الصاعد. ومن خلال العلاقات مع حكومة محمد علي نفسه حاولت فرنسا، عن طريق تصدير الخبرة والثقافة لا الاعتماد على الأقليات، أن تتسلل إلى مختلف المجالات في دولة مصر الحديثة التي أقامها ذلك العاهل الكبير. ثم تتابعت محاولاتها في عهد خلفائه حتى نجحت منافستها الكبرى في احتلال البلاد أيام توفيق.

وعلى أية حال فقد اتفقت الدولتان في محادثات الصلح على إعادة

اللغة الفرنسية للأمرء ، وبخاصة إسماعيل بن محمد علي (الذي فتح السودان وهناك نمر ملك شندي) . ثم مات لاسكاريس في القاهرة عام ١٨١٧ في ظروف مريبة . وقيل إنه مات مسموما على يد أحد رجال محمد علي لأنه أقحم نفسه أكثر من اللازم في المسائل السياسية . وهكذا كانت نهاية الرجل الخيالي المغامر ، الذي بدأ وانتهى كما وصف نفسه « صاحب مشروعات » .

مصر لحظيرة الدولة العثمانية . وتم إدماج هذا الاتفاق في معاهدة الصلح النهائية التي وقعت في أميان (Amiens) عام ١٨٠٢ . وخلال السنوات التي أعقبت انسحاب الحملة الفرنسية لم يدر في خلده أى من الدولتين المتنافستين على مصر خاطر يتصل بتطوير ما في بنية الحكم يتحقق لونا من الاستقلال أو الرفاهية للشعب المصرى ، أو يرفع عنه شيئا من مظالم المماليك أو استبداد الحكم العثماني ، كما جاء في مشروع الاستقلال المزعوم .

● أما المهاجرون الذين أقلتهم الفرقاطة بالاس الى الشواطئ الفرنسية فقد كان مصيرهم التشتت والضياع . لقد أغفلت الحكومة الفرنسية أمرهم تماما ، ولم تستقبل منهم أحدا ، ولم يعرهم المسئولون أى اهتمام . وعاد نفر منهم لوطنهم بعد قليل ، وظل الباقون هناك نهبا للفقير والفاقة ، بل إن بعضهم — كما تثبت وثائق وزارة الخارجية في باريس — لجأ الى السلطات الفرنسية مستجديا فمحتهم الحكومة الفرنسية معاشا ، وانتهى أمرهم بأن ذابوا في المجتمع الفرنسي^(٤٠) . ولم يترك أحد منهم في التاريخ ذكرا إلا الشاب القبطي « إليوس بقطر » ، الذي كان في الثامنة عشرة عندما انضم إلى قافلة الراحلين عن مصر ، فقد تعلم إليوس الفرنسية وأجادها واشتغل بالترجمة والتدريس في باريس نحو عشرين عاما تمكن خلالها من إعداد أول قاموس فرنسي عرقي تم طبعه بعد وفاته^(٤١) .

وأما فارسنا الدون كيشوتى ، النبيل البيدمونتى^(٤٢) الحالم لاسكاريس ، فقد ظل — كما قال الأستاذ شفيق غربال — « يضرب في بلاد الشرق سنين ، يجود ذهنه بالمشروع تلو المشروع ، أحيانا لإصلاح الزراعة في بلاد القوقاز ولبنان ، وأحيانا لتدبير مستقبل الجبل السياسي أو لتسوية مشكلة الوهاية . وهو أينما حل يحوطه جو من الظنون والارتياب من جانب الرجال الرسميين ، وحظه الحزن والفاقة »^(٤٣) . وانتهى المطاف بالفارس المغامر إلى مصر ، حيث أخذ يتكسب بتعليم

في هذا كله على عدد وفير من المراجع والوثائق .

وليس من العسير في ضوء ما تقدم أن نحاول الإجابة عن السؤال الذي كان محور هذه الدراسة ، وهو : هل يعقوب خائن لقومه وبلاده ، باع نفسه للمحتل الغاصب وتفانى في خدمة مصالحه ؟ أو هو - على النقيض - بطل وطني وضع أول مشروع لاستقلال مصر ، وسبق به الحركة الوطنية المصرية بعشرات السنين ؟

ينبغي أن نقدر أولاً أنه لم يكن قد تبلور في مصر في ذلك الوقت شعور وطني خالص . لقد كان هناك إحساس عميق بالانتماء إلى هذه الأرض والاعتزاز بتراتها الحضارية المشترك من لغة وتقاليد وعادات ، ولكن على أساس أن مصر جزء من « دارالإسلام » يتعاضد فوق أرضها شعب غالبية من المسلمين مع أقلية من الذميين الذين حددت شريعة الإسلام حقوقهم وواجباتهم ، دون ما تعصب أو تطرف . ومن هنا فقد قاوم المصريون الحكم الفرنسي وثاروا عليه في القاهرة ومختلف أقاليم الوجه البحري والصحيد ، ولكنهم كانوا بوجه عام متقبلين للحكم العثماني المملوكي بالرغم من مساوئه . وكانوا أحياناً ما يقاومون بالغضب والاحتجاج والسخط طغيان وال أو ظلم مملوك ، ولكنهم لم يقوموا بأية ثورات شعبية « وطنية » على شكل السيادة أو نظام الحكم .

ولم يشهد التاريخ طيلة ما يقرب من ثلاثة قرون قبل مجيء الحملة إلا محاولتين فرديتين للانتفاض على السيادة العثمانية أو الطغيان المملوكي أوها معا ، كانت أولاهما ثورة همام بن يوسف زعيم قبائل الهوارة بالصحيد ، الذي استقل بالمنطقة الممتدة من المنيا حتى حدود مصر الجنوبية حوالي عام ١٧٦٥ ، ثم كسر على بك الكبير شوكنه وقضى على حكمه بعد أربع سنوات . وكانت المحاولة الثانية على يد على بك الكبير نفسه الذي كان شيخاً للبلد ، أى زعيماً لمماليك مصر ، وتمرد على سلطة الباب العالي واستقل بمصر عام ١٧٦٦ . ولكن ما لبثت هذه

وبعد...

فهذه قصة المعلم يعقوب ، المصري القبطي ، الذي عاش حياة امتدت ستة وخمسين عاماً ، ذاق فيها لذة الغنى والترف ، وتمتع بالجاه والنفوذ ، وصار من زعماء طائفته المرموقين . ولكن سيرته في الأعوام الثلاثة الأخيرة من حياته وحدها كانت حديث الناس في أثنائها وبعد انقضائها . لقد كانت تلك الفترة الزمنية على قصرها حافلة بالأحداث التي تركت آثاراً عميقة في حياة البلاد . ومنذ بدايتها اختار يعقوب لنفسه نهجاً واضحاً لم يحد عنه ، ربط فيه نفسه بالحملة الفرنسية ومصالحها ومصيرها ، وتمادى في هذا إلى أبعد حد ، حتى أنه وجد من المنطقي أن يرحل مع قوات الحملة بعد أن تهاوت أحلام قادتها ومنيت مشروعاتهم في استعمار مصر بالفشل .

ولقد تناولت هذه الدراسة بكل موضوعية سيرة يعقوب منذ نشأته ، وتعرضت لمكونات شخصيته ، ثم ركزت على تلك الحقبة العميقة العريضة رغم قصرها ، ففصلت القول في سلوك يعقوب ومواقفه في إطار المتغيرات التي لحقت وجه الحياة في مصر إبائها ، وفي ظل الظروف التي صاحبت أحداث الحملة وتفاعلت معها . واعتمدت

أملى هذا الموقف على يعقوب أن يحارب في صف الفرنسيين ضد المماليك الذين عمل من قبل في خدمتهم ، وأن يتحمس لتكوين الفيالق القبطية ويشترك به في عدة عمليات مع الفرنسيين ضد الوجود العثماني في أواخر عهد الحملة . ولقد رأينا كذلك كيف كانت تصرفاته ، من مركز القوة ضد مواطنيه المسلمين .

لقد ساند يعقوب بكل ثقله وإمكاناته الغزاة الفرنسيين وعاونهم في إحكام قبضتهم على مصر ، واحتمى بقوتهم ، وحسب أن حكمهم بداية لمرحلة جديدة سوف تتغير فيها موازين القوى ويصبح للأقلية القبطية تحت الحماية الفرنسية مكانة متفوقة تناسب وما قدمه هو وفيلفه لسلطات الحملة من خدمات . ولقد رأينا في سيرة يعقوب خلال سنوات الحملة الثلاث كيف امتزج لديه الطموح الذاتي والمطامع الشخصية بتلك النظرة المستقبلية غير المتبصرة . وعندما بات مصير الحملة في مصر واضحا أثر يعقوب الانسحاب من الساحة ، ولم يلبث أن وافاه أجله .

أما أحاديث يعقوب على ظهر الفرقاطة « بالاس » مع قبطانها الإنجليزي ، فلا تعدو أن تكون من قبيل الأحاديث العفوية العابرة . وقد أوضحت هذه الدراسة دور لاسكاريس في نقلها وصياغتها حتى تحولت إلى مذكرات كان مصيرها الحفظ في أضاير وزارتي الخارجية في لندن وباريس .

ومن التجاوز الشديد ، بل ومن الشطط اللاموضوعي أن ننظر إلى هذه المذكرات أو الى شق منها كما فعل بعض المؤرخين ، باعتبارها أول مشروع لاستقلال مصر ، وأن ننسب هذا المشروع إلى الجنرال يعقوب ، وأن يتطرف البعض فيرفع يعقوب إلى مصاف الأبطال الوطنيين . إن يعقوب لو كان قد فكر بالفعل في مشروع لاستقلال البلاد لقدمه إلى قواد الحملة في تلك الفترة الحافلة التي سبقت جلاء

المحاولة بدورها أن أجهضت بعد ما لا يزيد على ستة أعوام . وقد أدرك يونابرت ذلك تماما منذ بداية حملته ، فحاول من خلال منشوراته إلى المصريين أن يضرب على وتر المشاعر الدينية فيؤكد حرصه على احترام الإسلام وتوقير علمائه والاعتراف بسيادة السلطان العثماني « خليفة المسلمين » ولكن القائد المختال لم ينجح في هذه المحاولة التي لم تتخذ أحدا ، ولم تجد بيئة صالحة تؤتي فيها ثمارها . وكل دارس لتاريخ مصر الحديث يعلم أن الشعور القومي المصري ، أى الشعور بالانتماء الوثيق إلى هذا « الوطن » ذى المقومات المعروفة المحددة ، بكل أبعاد هذا الانتماء ، ظل ممتزجا امتزجا قويا بالشعور الديني ، أى بالانتماء الى دار الإسلام الواسعة ، بكل ما يفرضه هذا الانتماء من التزامات ، حتى ساعدت الظروف السياسية والاجتماعية على أن يبدأ تبلور الشعور « الوطنى » بالمعنى السياسي الحديث بعد عهد الحملة بعشرات السنين .

وفي ظل تلك الظروف ، كيف نقوم مسلك المعلم يعقوب ؟ إنه لم يكن مجرد خائن لقومه وبلاده ، فوصفه بذلك هو من قبيل إطلاق الأحكام العامة التي تفتقر إلى التحديد . والأدق أن يوصف بأنه منشق على نظام الحكم القائم وبينته رافض له . ولكن ما أساء إلى موقفه أبعد الإساءة أن هذا الانشقاق أو الرفض اتخذ من البداية بعدا طائفيا مذموما ، فنبلا عما امتزج به من طموحات شخصية .

لقد رفض يعقوب إذ واثته الفرصة أن يستمر في الخضوع لنظام الحكم الإسلامى ، الذى كان في رأيه يمثل طغيان الأغلبية على الأقلية ، وفي ظله تضطهد طائفته القبطية وتمتهن حقوقها . وانشق يعقوب على أمته فصانع كما رأينا الحاكم الفرنسى منذ البداية وذهب في مصانعه إلى أبعد مدى . وكان له من رفضه وانشقاقه موقف لم يجد عنه ، بل راح ينتهز كل فرصة لإثباته وتأكيد ، وهو موقف اتسم بنظرة طائفية متطرفة كانت لها مظاهرها التعصبية الحادة .

الجار عن يعقوب ومشروعه أن يغفل الإشارة إلى مذكري لاسكاريس المرفوعتين إلى بونايرت وتاليران واللتين وقعهما عمر افندى ، مع أنه رجع إلى بحث الأستاذ شفيق غربال الذى أورد نص هاتين المذكرتين وناقشته فى أكثر من موضوع ، وليس هذا من الأمانة العلمية فى شئ . ولو كانت مناقشة الدكتور قد امتدت إلى هاتين المذكرتين لوفر على نفسه وعلى قرائه الكثير مما قدمه تمجيدا ليعقوب ومشروعه ، فمجرد وجود مشروعين متناقضين بهذه الصورة يكفى — كما أوضحنا — لإلقاء الضوء على أهم أحداث تلك « المسرحية البحرية » التى أسلفنا عرض مشاهدتها ، ولتقوم أدق لكل من يعقوب ولاسكاريس وأفكارهما عن مصر ومستقبلها .

والأمر الذى لا جدال فيه أنه اذا كان المعلم يعقوب قد نزع ، إبان الحملة الفرنسية فحسب ، إلى سلخ مصر عن الدولة العثمانية ، فقد كان هذا النزوع من خلال نظرة ضيقة أملتها عاطفة طائفية لا وطنية فيها ولا بطولية ، وغناها طموح شخصى يستهدف تحقيق منافع ذاتية . والتاريخ يسجل لنا على أية حال أن يعقوب لم ينفرد وحده فى تلك الأيام بمثل هذا النزوع الذى يغذيه طموح شخصى والذى لا وطنية فيه ولا بطولية ، بل نما هذا المنحنى غيره من شخصيات مصر البارزة ، وإن خلا نزوعه من العاطفة الدينية .

القوات الفرنسية . ولاشك أن صلة يعقوب هؤلاء القواد وما توافر لديه عندئذ من إمكانيات كانت تسمح له بذلك فى الوقت المناسب . بل إنه كان يستطيع أن يقدم ذلك « المشروع » إلى الجنرال بليار أو غيره عن ضمير السفينة بدلا من الثرثرة فيه مع القبطان الإنجليزى . ولعل التناقض الواضح بين فكرة الاتصال بالمسؤولين الإنجليز لتحقيق ما سعى بمشروع الاستقلال وبين الاتصال فى الوقت نفسه بالمسؤولين الفرنسيين ، ليوكد ما سبق أن خلصت إليه الدراسة من نسبة ما حدث إلى لاسكاريس ، الرجل الخيالى الحالم الذى عاش ومات « صاحب مشروعات » .

نقد رفض الدكتور لويس عوض فكرة أن يكون لاسكاريس وراء تلك المذكرات وجزم بنسبتها إلى يعقوب ... الذى كان على رأس مجموعة من « المنفيين المصريين » تمثل « وفدا مصريا » . وذهب الدكتور لويس عوض فى الإشادة بيعقوب وبمشروعه والتحمس له مذهبيا انفرد به دون سائر من كتبوا عنه من المؤرخين والباحثين ، إذ وصفه بأنه يمثل مدرسة فى الوطنية والكفاح القومى تعادل — فى تلك الأيام — مدرسة عمر مكرم ومن إليه ، وإن اختلفت سبيل كل منها واختلف مذهبه فى الفكر والفعل . وقال إن يعقوب وفيلقه القبطى ثمودج شائع فى عهد بونايرت ، وقارن بينه وبين من تطوعوا فى صفوف الجيش الفرنسى من الأوربيين إيمانا منهم بمبادئ الثورة الفرنسية . ثم وصف « مشروع استقلال مصر الذى وضعه يعقوب والإخوان الاستقلاليون » بأنه موضوعى ووطنى ، وأنه يتفق مع مصالح البلاد الأساسية . وختتم الدكتور لويس عوض مناقشته الطويلة بأن رفع يعقوب إلى مصاف أبطال مصر وقادتها العظام ، فاعتبره حلقة فى سلسلة الزعماء الذين شاركوا بجهدهم فى الكفاح من أجل استقلال البلاد من على يد الكبير إلى جمال عبد الناصر... !!^(٤٤)

والغريب أن الدكتور لويس عوض تعمد فى حديثه المطول ودفاعه

الملوك العميل

لقد رأينا كيف أن مراد بك ، الذي فر إلى الصعيد أمام قوات جيش الحملة بعد أن عجز هو وزميله إبراهيم بك عن مقاومة الغزو الفرنسي على متنازل القاهرة ، ظل يناوئ ويتناوش قوات ديسيه المتوغلة في الوادي الضيق قبل أن يوقع اتفاقية « سلام وتحالف » مع الجنرال كليبر وقد فضت هذه الاتفاقية بأن يحكم مراد بك الصعيد الأقصى باسم الجمهورية الفرنسية في مقابل التزامات معينة (شكل ٧) .

إن مراد هذا - الذي أطلق اسمه على شارع من أهم شوارع الجيزة ! - قد تعاون مع المحتل الفرنسي بعد هذه الاتفاقية إلى أبعد حدود التعاون . وكانت صلته بسلطات الحملة في القاهرة صلة التابع الخالص الأمين . ولم يكن أقل من يعقوب ولاء للفرنسيين وعملا على خدمة مصالحهم . ومن مظاهر ذلك ما يثير أمر مشاعر الأسي والأسف . فعقب اغتيال الجنرال كليبر مثلا بعث مراد بك برسالة تعزية إلى قائد الحملة الجديد الجنرال منو (وهي من الوثائق التي لم يسبق نشرها) (٥٥) . وقد أعرب مراد في هذه الرسالة عن أسفه العميق على هذا الحادث واستنكاره له ، ووصف مرتكبه بأنه « خائن وقليل



حرماته منها ... » (٤٧) .

ويؤكد هذا الموقف من مراد مؤرخو الحملة الثقات من الفرنسيين وغيرهم . فيقول البارون أرنوف (Arnouf) مثلا الذي أُرخ للجنترال كليبر ، إن مراد طمع في حكم مصر تحت السيادة الفرنسية خوفاً من أن تؤدي عودة السيادة العثمانية إلى القضاء على قوة المماليك ، وإنه كان يسمى نفسه في الصعيد « السلطان الفرنسي » . ويقول ريجو إن الاتفاقية التي وقعها مراد مع كليبر تدل على بعد نظر سياسي ، لأنه في الوقت الذي يغادر فيه الفرنسيون مصر — وكان ذلك متوقفاً — سيكون من السهل عليهم أن يخلفوا فيها مراد بك ملكاً على البلاد كما كان يأمل ، وبذلك يمكن الحلولة دون وقوعها تحت حكم الإنجليز . وقد ردد مراد نفسه هذا المعنى مرة أخرى في رسالة بعث بها إلى الجنرال دونزولو (Donzelot) — أحد كبار قواد الحملة — بعد عقد اتفاقته بشهرين (٤٨) .

وفي تلك الأيام المضطربة التي حفلت بكثير من الأحداث والتي عانى فيها المصريون من مختلف ألوان الشدائد والهنن ، والتي بدأت بعقد اتفاقية العريش وانتهت بانتصار كليبر في موقعة عين شمس على القوات العثمانية والإنجليزية المشتركة ، كان مراد بك كما كان المعلم يعقوب من أكبر الدعامات التي استند إليها ظهر الحملة الفرنسية في مواجهتها للزحف العسكري من الخارج وللتثورات الشعبية من الداخل . لقد كتب « جالان » (Galland) و « برتية » (Berthier) وهما من رجال الحملة أن مراد بك قدم للفرنسيين في أثناء ثورة القاهرة الثانية (بعد نقض الصلح مع العثمانيين) المؤن والذخائر وسلمهم العثمانيين اللاجئين له ، وأرسل لهم المراكب المحملة بالأحطاب والمواد الملتهبة لإحداث الحرائق اللازمة لإخماد الثورة التي كانت قد اشتعلت كذلك في مناطق أخرى غير القاهرة . وكان يفضل هذه المؤن والمهمات والمواد

المروية . ثم ذكر أنه حصل له غاية الفرح والسرور بتولى مو قيادة الحملة ومستولية الحكم . وأكد أن العلاقة بينه وبين السلاطات الفرنسية تامة إذ أثبت وأنه « على الخيبة والشروط على ما هو عليه حكم الأول ، لم يبق له إلا تزيين الخيبة والتوفيق » . ولم يجد مراد بك بعد هذا بأساً — مع أنه يكتب رسالة تعزية — في أن يأكر الحناكم الجديد بتمسك سبقه إلى فرنسا التي تقاهرة مع أحد أتباعه (الأمير إبراهيم كندخل) يعتذر فيه من تفسيره في إرسال كامل مستحقبات الحكومة المركزية في القاهرة مما حبه من الأمان الأميرية : « وحضرتكم تتحملونا وتقبلوا عذرتنا في سنة شرارنا لأن حاصل لنا نعب من قبل المعايين والأمر إلى الله معاني مؤلى حضرتكم ... » . وقد عوز مراد بك رسالته هذه فبعث بصور تيش الأكرس منها إلى سائر جنرالات الحملة .

أثقل في عروس حقائق أخرى وحرب مزيد من الأمثلة لتوضيح مدى توتر العلاقة بين مراد والفرنسيين ما يساعد على فهم أرحب لموقف يعقوب وحكمه أصدق على ما حدث من تعاون وارتباط بين صناديق الحملة وبعض من نظيرهم من أبناء البلاد وغيرهم . هذا كما ملاحظته أن اتفاق كليبر ومراد كان في الواقع تحقيقاً لفكرة توحدت بوالبرات في بداية عهد الحملة . وقد فوض محاولة تحقيقها روس (Rosetti) فضيل الخمسا في الاسكندرية وقتل (٤٦) ، تماماً كما كان يتفاءل القوي القوي ووفرة الأروام نجسها لبعض تلك القائد الشهير . ويلاحظ كذلك ، وهذه نقطة بالغة الأهمية ، أنه كان من المتفهمين تلك الاتفاقية الموقعة مع مراد بك تسليم مصر إليه عند خروج الفرنسيين منها . وقد أعربت مراد عن أمله في تلك مصر في رسالة منه إلى الجنرال كليبر قبل عقد الاتفاقية ، فقال إنه « يرغب في أن ينضم إلى الفرنسيين ويبتغى منهم .. وإنه يتنكب الاستقرار في جزء من البلاد ، حتى أنه يجلب الفرنسيين من مصر استطاع مع ما يملونه به من معدات أن يتولى على هذه البلاد التي هم مساحيها ولا يستطيع غير الفرنسيين

للتعاون معهم أو محاولتهم هم لاحتواء هذا « البعض » ومد جسور الصداقة إليهم .. نظروا إلى كل ذلك نظرة واقعية مكباقتيلية لها غاية محددة واحدة ، هي مصلحة الجمهورية الفرنسية ، مهما اختلفت الوسائل وتوعدت السبل لتحقيق هذه الغاية . وكانت هذه النظرة في الوقت ذاته واعية متبصرة . إنهم رموا شباكهم على مراد وأفلحوا في اصطياده ، ورحبوا بتعاونه وتفانيه في خدمة مصالحهم ، ولم يجدوا في تطلعه إلى سلخ مصر عن الدولة العثمانية وطموحه إلى التربع على عرشها في ظل حمايتهم أمرا غير عادي أو لا يدخل في دائرة الممكن . لقد كانوا يعلمون جيدا أن السيادة العثمانية على مصر هي في حقيقتها اسمية روحية ، وأن الحكم الفعلي للمماليك الذين قال عنهم يوتاربت قائد الحملة في منشوره الأول إلى المصريين إنه حضر للقضاء عليهم . وكانوا يعلمون كذلك أنه ليس غريبا أن يتطلع رجل كمراد بك إلى حكم مصر منفردا ، فقد كان عند قدوم الحملة يتقاسم وزميله إبراهيم بك منصب مشيخة البلد ، أى زعامة طائفة المماليك التي كانت تمثل رأس السلطة التنفيذية في البلاد . وكانوا يعلمون أيضا أن المصريين اعتادوا على حكم المماليك مع ما يقترن به من مظالم ومفاسد ، وليس من العسير أن يصلوا ما انقطع بعد اضطرار الفرنسيين إلى الجلاء بقواتهم عن البلاد . ومن هنا أيدوا في اتفاقهم مع مراد فكرة تنصيبه بحمايتهم سلطانا أو ملكا على مصر بعد جلائهم ، واعتبروه منذئذ مواطنا فرنسيا .

ويذكر لنا الجبرتي اهتمام الفرنسيين غير العادي بخير وفاة مراد المفاجئة بالطاعون قبل توقيع بليار لاتفاقية الجلاء عن القاهرة بنحو شهرين . فقد أرسلوا « جوابات إلى الأمراء المرادية يعزونه في أستاذهم (أى زعيمهم) ، بل وتدخلوا كذلك في تعيين من يخلفه في زعامة المماليك ، فبعثوا « تقريرا إلى عثمان بيك الجوخدار .. بأن يكون أميرا ورئيسا على خشداشينه (أى زملائه) وعوضا عن مراد بك »^(٥٢) ونحن نعلم أن زعامة مماليك مراد المواليين لفرنسا آلت فيما بعد إلى عثمان البرديسي ،

التي زود بها مراد الفرنسيين أن استطاعوا فعلا إخضاع الثورة بعد أن أحرقوا حتى بولاق وغيره^(٤٩) . ويقول الجبرتي في هذا الصدد أيضا إن مراد بك « عند توجهه إلى الصعيد بعد انقضاء الصلح أخذ ما جمعه درويش باشا (العثاني) من أغنام وخيول وميرة وكان شيئا كثيرا فنسلم الجميع منه وعدى درويش باشا إلى الجهة الشرقية متوجها إلى الشام وأرسل مراد بك جميع ذلك للفرنساوية بمصر (أى القاهرة)^(٥٠) . هذا في الوقت الذي كان يعقوب — كما رأينا — يساند فيه الفرنسيين عسكريا بقتاله لمن تسلل إلى القاهرة من المماليك والعثمانيين ، ويساعدهم كذلك في تحصيل ما فرضوه على المصريين من مغارم .

وبنينا منح قادة الحملة ليعقوب رتبة في الجيش الفرنسي ، فإنهم كانوا يعتبرون مراد مواطنا فرنسيا . وقد حدث في أول عهد منو ، قبل بدء العسائيات الحربية بين الفرنسيين والقوات المشتركة ، أن تدخل مراد بك محاولا التوسط بين العثمانيين وقيادة الحملة لإجراء مفاوضات جديدة ، وبعث بنائبه عثمان البرديسي إلى القاهرة ومعه رسالة بهذا المعنى . ولكن منو رفض هذه المحاولات وأدان بشدة اتصال مراد بالمعسكر العثاني ، وقال إن مراد بك هو أحد مواطني الجمهورية (un des membres de la Republique) ويجب عليه أن يهتم بشئونه وألا يتجاوز حدوده^(٥١) .

وكما عكس الجبرتي شعور المصريين تجاه شطط يعقوب وتطرفه في التعاون مع الفرنسيين بكثير من الامتعاض والسخط ، فكذلك فعل في مناسبة وفاة مراد (خلال عهد منو) فأفاض في ذكر مظالمه ، وذكر بكثير من الاستنكار ما قدمه للفرنسيين من خدمات ، ثم قال « إنه كان من أعظم الأسباب في خراب الإقليم المصرى بما تجدد منه ومن مماليكه وأتباعه من الجور والتهور »^(٥٢) .

ولقد نظر الفرنسيون إلى محاولات البعض التقرب إليهم وبسط اليد

الجانب العسكري ، فأنصرف إلى حد كبير عن النشاط المالى وما جرت عليه جباية المغارم والفرد هو وأتباعه من احتكاكات ومصادمات مع المواطنين . وتعكس عريضة تظلم من ملطى وأنطون إلى القائد العام (لم يسبق نشرها) أثر ما اتخذ منه إزاءهما من إجراءات. إنهما يشكوان ما وقع بهما قائلين « .. وقد زاد علينا الحال حتى ظهرنا من جملة (كذا) العصاة على أوامركم . وقد قاصتمونا لذلك فانتضى الحال أن نستغيث بكرسيكم تعيينوا بأمركم أناسا من أهل الفطنة خالين الغرض ممن ترونها أنتم يقعدوا في مايننا (كذا) ويتصرفوا في حال حسابنا .. » ثم يستشهدان بزميلهما يعقوب ، ويشيران إلى أنه لم يستطع الشفاعة لهما أو الوساطة من أجلهما : « ثم إن هذا أمر يدركه أيضا خادكم الخاص حضرة الجنرال (كذا) يعقوب ومع ذلك لأجل طبعه الوديع مختار كيف يتصرف في مثل هذه الدعوة .. » (شكل ٩) .

٢ - وعندما كون منو ديوانا جديدا في أكتوبر ١٨٠٠ عدل عن تعيين ممثلى الأقليات في هذا الديوان كما كان عليه الوضع منذ أنشأ بونايرت الدواوين . وقال في المادة الثالثة من المرسوم الخاص بإنشاء هذا الديوان « فلا بد من إقامة ديوان بمصر مؤتلف من جماعة العلماء أو من أناس آخرين مسلمين الأوفر امتداحا بالفضل والمعرفة والمنتهين عن محبة المال ... » . وقال الجبرقى عن هذا الديوان إنه أنشئ « على نسق الأول من تسعة أنفار متعممين لا غير وليس فيهم قبضى ولا وجاقلى ولا شامى ولا غير ذلك .. » . وكان الجبرقى نفسه أحد الأعضاء التسعة في هذا الديوان (٥٤) .

ومؤدى هذا كله أنه كان من المستبعد تماما أن يفكر الفرنسيون وهم يخططون لمستقبل علاقاتهم بمصر في الاعتماد على زعيم من زعماء الأقلية

وأن الإنجليز كذلك استألوا لتأييدهم فريقا آخر من المالكين بزعامة محمد الألقى ، هذا بينما كان محمد على يصارع مختلف القوى متمسكا بطريقة ثلاثفرد بحكم مصر من خلال الشرعية العثمانية .

أما علاقة الفرنسيين بالأقباط وزعمائهم فكانت أمرا مختلفا تماما . فقد لجأت اليهم سلطات الحملة لمساعدتها في تدبير الشؤون المالية للبلاد بحكم ما يملكونه من خبرة طويلة في هذا الصدد ، وما توافر لديهم من بيانات ومعلومات تتصل بالدخل العام ومساحة الأراضي الزراعية وتفصيلات ما تقرر عليها من ضرائب وما إلى ذلك . وزاد اعتمادهم على العنصر القبطى في جباية الأموال وحسابها بعد أن تبين تقصير موظفى الإدارة الفرنسية وإهمالهم . ومع هذا فإن أولئك الجباة والصباريف لم يكونوا عند حسن ظن الفرنسيين بهم . ويجمع مؤرخو الحملة ، نقلا عن وثائقها ، على أن المخلصين نهوا أموال البلاد ، واشتدوا في عسفهم وجورهم ، وغلوا في استباحتهم أموال الناس وعيشتهم بكرامة دافعى الضرائب من الفلاحين وغيرهم . وتحفل كتابات هؤلاء المؤرخين بكثير من الأمثلة السارخة على ذلك . ولقد بذلت حكومة الحملة وبخاصة في عهد منو جهودا كبيرة لمحاولة تغيير هذه الأوضاع والتخلص من هيمنة أولئك الجباة ، بإعادة التنظيم الإدارى ومراجعة تصرفات الموظفين والدقة في فحص الحسابات ... الخ .

وقد اتخذ عبد الله منو في هذا الصدد موقفين حاسمين قلبا موازين العلاقات بين سلطات الحملة والأقباط :

١ - فعندما يبلغه إستيف (Estève) مدير الشؤون المالية للحملة باكتشافه لاختلاسات جسيمة من الأموال العامة أمر بالقبض على أنطون أى طاقية وملطى وأرتمهما برد المبالغ التى اختلسها الجباة الذين يعملون تحت إشرافهما . أما يعقوب فأفلت من هذا الحصر إذ تركزت جهوده في التعاون مع الفرنسيين بعد كليير في

ولتشق طريقها بمسلميها وأقباطها نحو التقدم والنماء ، تصارع كدأها كل ما رزئت به من محن ، وتقاوم في بسالة ما نكبت به من احتلال آخر جثم على صدرها عشرات السنين ، ولتضرب بشعبها العظيم وأبطالها الخالدين أروع الأمثلة في الوطنية والكفاح ، ولتبهز العالم بثورة ١٩١٩ التي اعتنق فيها الهلال والصليب في وحدة لم يسبق لها أو يلحق بها نظير ، ولتفخر بأبنائها وما يقدمون لها كل يوم من عطاء وفداء .

القبضية ليتولى السلطة في صالحهم أو تحت حمايتهم ، بعد أن يضطروا إلى إجلاء قواتهم عن البلاد ، مهما كان ولاء هذا الزعيم لهم ومهما بالغ في خدمة مصالحهم .

لقد أفلح الفرنسيون — كما رأينا — في اصطناع بعض المماليك ، ولكن التطورات التاريخية قضت على قوة المماليك « المصرية » بمختلف أحزابها واتجاهاتها . وحاول الفرنسيون كذلك أن يصطنعوا — أو يصانعوا — علماء الأزهر بوصفهم قادة الشعب وموضع احترامه وإجلاله ، وتقربوا إليهم بشتى وسائل الإغراء والتهديد ، حتى أرغموهم أحيانا على أن يوجهوا منشورات إلى المصريين أو يبعثوا برسائل إلى قادة الحملة ، تجعلهم يبدوون في صورة المؤيدين للحكم الفرنسي والموالين لمبادئ الثورة الفرنسية العظيمة ! ولكن هذه المحاولات كان مآلها المتوقع هو الفشل الذريع ، ولم تستطع أن تهز من مكانة هؤلاء العلماء أو تغير من توقير الناس لهم وإيمانهم بقيادتهم . أما اصطناع يعقوب أو من إليه من زعماء الأقلية فكان أمرا مرحليا وبصورة محدودة في أثناء حكمهم للبلاد . ولكن اصطناعه لينفذ لهم مخططا آجلا أو ليعينهم على تحقيق غاياتهم . إنما هو أمر لم يكن ليخطر لهم على بال ، لأنه كما قال أحد مؤرخيهم « أشبه بالمرأنة على الحصان الخاسر » .

* * *

وانطوت صفحة من تاريخ مصر لم تزد مساحتها الزمنية على ثلاثة أعوام ، ولكنها حفلت بالكثير من الأحداث والتغيرات . وانقشع عن البلاد ظلام الاستعمار الفرنسي ، وأفاقت مصر من صدمتها وما خلفته من غير ودروس لتستأنف مسيرتها عبر حقب التاريخ ، ولتصبح بعد قليل أمة ناهضة موحدة تبنى دولة حديثة ، وتنبور على مر السنين مشاعرها الوطنية الخالصة ، وتتأكد قوميتها الذاتية واتجاهاتها الطبيعية ،

(٢٠) شفيق غربال مرجع سابق ص ٢٢ .

(٢١) الجبوتي، ج ٣ ص ١٤٢ .

(٢٢) الجبوتي، ج ٣ ص ١٨٨ .

(٢٣) الجبوتي، ج ٣، ص ٢٠٥

(٢٤) Gaston Homsy, op. cit., p.115.

(٢٥) جاك تاجر، حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر، ص ١٤٠ - ١٤١ . ويتضمن هذه الترجمة مخطوط مودع بدار الكتب المصرية، بعنوان «الأمير في علم التاريخ والسياسة والتدبير» .

(٢٦) Mémoires du Conte Belliard, t. III, p. 213.

(٢٧) الجبوتي، ج ٣، ص ١٩٦ .

(٢٨) المرجع السابق، ص ٢٠٤ .

(٢٩) المرجع السابق، ص ٢٠٠ .

(٣٠) المرجع السابق، ص ٢٠٤ .

(٣١) المرجع السابق، ص ٢٠٧ .

(٣٢) Rousseau, M.F., Kléber et Menou en Egypte, p. 333.

(٣٣) Kléber شفيق غربال، مرجع سابق، ص ٣٢

(٣٤) انظر : George Druin, l'Egypte Endependante, pp. 1-3.

(٣٥) G. Homsy, op. cit., p. 141. وانظر كذلك : شفيق غربال، مرجع سابق، ص ٤٨ .

(٣٦) انظر : Mèreure de France, 15 Juin, 1924.

(٣٧) لويس عوض، تاريخ الفكر المصري الحديث، ج ١، ص ٢٠١ .

(٣٨) لويس عوض، المرجع السابق، ص ١٨٨ .

(٣٩) شفيق غربال، مرجع سابق، ص ٣٨ .

(٤٠) توجد بعض عرائض الاستجداء من المهاجرين المصريين في وثائق وزارة الخارجية الفرنسية . ويبدو ان المعاشات التي أجرتها الحكومة الفرنسية على المهاجرين المصريين استمرت تصرف لورثتهم . فعمل سبيل المثال ظل « جيربيل إبراهيم »، وهو حفيد أخت يعقوب، يصرف معاشه حتى وفاته في عام ١٨٧٨ (انظر : G. Homsy, op.cit., p. 67) .

(٤١) يبدو أن هذا الشاب كان الوحيد من شباب الأقباط الذين اصطفهم الفرنسيون ليتعلموا الفرنسية ويعملوا في جهاز الحكم الجديد، فلم نشر المراجع المعاصرة للحملة إلا إلى اسمه . فذكرت أنه اشتغل بالترجمة لبعض رجال الجيش . عاش إليوس في فرنسا نحو عشرين عاما عمل فيها مترجما بوزارة الحربية، حيث عهد إليه بترجمة بعض الوثائق العربية للحملة إلى الفرنسية، وكذلك شارك العلماء الذين صنفوا كتاب « وصف مصر » في تحقيق الأسماء العربية بخارطاته، ثم عمل مدرسا للربية العامة بمدرسة اللغات الشرقية بإباريس . وكان قد ألف قاموسا عربيا فرنسيا، عني بمراجعته ونشره بعد وفاته المستشرق « كوسان دي برسيفال »، Caussin de Perceval، الذي خلفه في

هوامش

(١) عبد الرحمن المبرق « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » ج ٣ ص ٤٦ .

(٢) المرجع السابق، ج ٣ ص ٤٧ .

(٣) رمزي نادرس، مشاهير الأقباط، ج ٣ ص ٢٤ - ٢٥ . انظر كذلك : يعقوب نخلة رقبلة، تاريخ الأمة القبطية، ص ٢٨٩ - ٢٩١ .

(٤) Georges Rigault, Le Général Abdallah Menou et la Dernière Phase de l'Expédition d' Egypte, pp. 113-114

(٥) نقلا عن : La Jonquière, C.De l'Expédition d'Egypte, III, p. 510

(٦) الجبوتي، ج ٣، ص ١٠١ .

(٧) رؤوف حبيب . يعقوب حنا، صور من تاريخ القبط، ص ٣٠٨ .

(٨) الجبوتي، ج ٣، ص ١١٢ .

(٩) المرجع السابق ص ١١٤ .

(١٠) المرجع السابق ص ١١٨ - ١١٩ .

(١١) انظر شفيق غربال، الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس، ص ٢٠ .

(١٢) Gaston Homsy, le général Jacob et l'Expédition de Bonaparte وجاستون حمصي فرنسي من أصل سوري مصري، ويتصل نسبه يعقوب نفسه .

(١٣) شفيق غربال، مرجع سابق ص ٢٠ .

(١٤) لويس عوض، تاريخ الفكر المصري الحديث، ج ١، ص ١٨١ .

(١٥) Rigault, op. cit., p.78.

(١٦) الجبوتي، ج ٣، ص ١٢١ .

(١٧) انظر : محمد نؤاد شكري، الحملة الفرنسية وظهور محمد علي، ص ٣٤٧، ٣٥٢ .

(١٨) شفيق غربال، مرجع سابق، ص ٢٣ - ٢٤ .

(١٩) الجبوتي، ج ٣، ص ١٧١ .

ملحق

تقديرين . وقد طبع هذا القاموس بعد ذلك عدة مرات ، بعضها في مصر بتحقيق عدد من خريجي مدرسة الآلن في عهد اسماعيل . انظر : أحمد حسين الصاوي ، فخر الصحافة في مصر ، ص ٢٦٥ - ٢٦٦ ، وكذلك : شفيق غرنال ، مرجع سابق ، ص ٣٩ .

(٤٢) يرجع أصله الى اقليم بيدمونت (Piedmont) الإيطالي ، الذي يقع على سفوح جبال الألب متاخمة لفرنسا وسويسرا .

(٤٣) شفيق غرنال ، مرجع سابق ، ص ٤٠ .

(٤٤) لويس عوض ، مرجع سابق ، ص ٢٠٧ - ٢٠٩ .

(٤٥) مؤرخة ١٥ صفر ١٢١٥ (يوافق ٨ يوليو ١٨٠٠) .

(٤٦) محمد قزاد شكري ، مرجع سابق ، ص ٣٤٢ .

(٤٧) الترحم السابق ، ص ٣٤٠ .

(٤٨) Rigault, op. cit., p. 75 .

(٤٩) محمد قزاد شكري ، مرجع سابق ، ص ٣٣٤ - ٣٣٥ .

(٥٠) الجزائر ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ١١٨ .

(٥١) Pigault, op cit., p. 269 .

(٥٢) الجزائر ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ١٧٥ .

(٥٣) الجزائر ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ١٦٤ .

(٥٤) الجزائر ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ١٣٧ - ١٣٨ .

فتلألت شجاعته وعقله ثم فطنته
 وشرح احتقاره الدنيا بالنظم والنسر^(٤)
 وقد فاز بها على الممالك إجمالا
 ظافر بأرقابهم^(٥) نصرا بالعز والقهر
 وأخضع تشاخي جماعة البربر
 مروضا أخلاق أهل إقليمنا المصر
 بل وأهل تيباس^(٦) المثمرة ومن
 كان قاطنا بالبر ثم والقفر
 فاعجب بمن كان محبوبا ثم مرغوبا
 حتى ومن كادهم بالحرب والقهر
 داسه فاتح بلادنا بناحية قبلي
 يضرب ويشفي ولا يدنو إلى القدر
 صنديد مجاهد وخصم محارب ولكنه
 طيب مداوى الجراح بالزيت والخمر
 فأها على ناصري داسه ووا أسفى
 على اصطحابى به لو قدر القدر
 فكنت أرغب وجودى بميدانى مارنجوا^(٧)
 كما رافقته قبلا بصعيدنا المصرى
 فكنت أرجوا وجودى لمعاونة عزي
 كما صاحته قبلا بالعز والنصر
 فموقى عنه فداءً كان يغنيه
 عن فقد حياة مفيدة ذكرها دهر
 أموت عن من حياته دوامها نفع
 ودوامها لخير عام والفخر والظفر
 ولكنه وإن مات فهو حى وما
 زال ذكره من دهر إلى دهر

ملحق رقم (١)

نص قصيدة يعقوب فى رثاء الجنرال ديسية^(١)

إنا لله وإنا إليه راجعون

الحمد لله محرك آلات الألسن الأوانس ، بأنغام اللغات
 الدوامس^(٢) ، وكاشف الغطاء الدلامس^(٣) ، عن الآثار الدوانس .
 نحمده حمدا وشكرا لائقا بإله مبدع وخالق ، بارئ المبرورات
 والخلائق ، مكور الأرض والسموات ، يصور الأحياء والأموات ، يميز
 النفائس من الحسنائس . فلا إله غيره ، ولا خير إلا خيره وهو الثالث
 والسائس أمين .

وبعد ، فهذا دعاء جليل سديد ، به نتحب وفات عزيزه ، الجنرال
 داسه صاحب الأمير يعقوب ، سارى عسكر القبط الجديد .
 فيقول

أذرفنا على ذكر الحبيب دموعا
 سكرنا بها ليوم البعث والخشر
 حبيب وقد ذاع صيته أبدا
 بظل وقد عرف فى سائر القطر

وإذا نُحِلَّت يصلح عام منتقلة
من يد ليد حاكم متعجرف ومفتري
فمنك تطلب العون ياداسه بأجمعنا
واسمك بباريس حمانا ياشاع الذكر
فبنا اعنتي لدوامنا بناحية قبلي
لننجوا بحياتنا من الموت والحسري
فتنقذ بنيك من كل نائبة
فإنهم بأعدائهم في أعظم الخطر
والآن غضيبهم تواقم ضد أمتنا
ولحبنا الفرنسيس قصدهم نسكن القبر
ومحبتنا للفرنسيس فلا بد عنها
لأنهم اعتقونا من الأضرار والشر
ثم انتهى مقالى إليك يارى
تجزى لداسه أعماله بالخير والأجر

هوامش

- (١) انظر شكل (٣) . وقد جاء في الترجمة الفرنسية المصاحبة للنص العرى أن القصيدة موجهة إلى وزير الحرية الفرنسية .
- (٢) جمع « داس » أى الخفى المستتر . وقد يكون معنى العبارة : « اللغات غير المعروفة » .
- (٣) التشديد الظلمة (٤) التمر
- (٥) صيغة خاطئة لجمع « رفة » ، والصحيح « رقاب » أو « رقب » .
- (٦) مدينة طيبة القديمة (الأنصر) .
- (٧) بقصد معركة مارنجو بإيطاليا التى قتل ديسه فى نهايتها عام ١٨٠٠ .
- (٨) بقصد : مستديرا بالتساع
- (٩) عبارة غير مفهومة والشطر كنه غير واضح المعنى .
- (١٠) ترى (١١) تحظى (١٢) بقصد : الأسر

ولم يزل بفكرى مخلدا أبدا
حتى إلى خروج الروح من صدرى
وظل نفسه الجميلة محتف أنوارا
متديرا بالتساع^(٨) فضاء الجو كالقمر
فصطحب مع الأقدمين مشتركا
متزيئا بيها أشعة الحب للبشر
وبشاهد عيانا برج حظ يونابارته
وما خصه الله من العظمت والقدر
وباتتحد مربع^(٩) وبهذا القدر مستغرب
يرجف اليربر أعداء الله والبشر
فيحصل الخير وينجح أهل مشرقنا
ويعود النظام ونرا^(١٠) النفع قد صدر
فيا من قطن ببلدة الأحياء والقبطة
ونفسك هناك تحضى^(١١) داخل الخندر
جد على بلحظ العين مترفا
وانظر إلى بأسنى برفة البصر
فانظر إلى شعبنا وشقاء حالته
فغدت حياتنا لا تخلو من الكندر
لاحظ المصيرين وكيف كانوا قديما
وعبيدا غدوا الآن للرق واليسر^(١٢)
فكم كنت تعجب أنت من مفاخرهم
وتيبايس القديمة يعلق ذكرها الخير
فمنك نرجوا الشفاعة يامعضد الأور
فلا تدع مصرنا لسابق النهير
ومن بعد حكم الفرنسيس أعواما
فلا تسيبها لحاكم يسوس بالقسر

إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفترين
إننى ما قدمت إليكم الا لكيما أخلص حقاكم من يد الظالمين وإننى أكثر
من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه محمد والقرآن
العظيم^(٧) .

وقولوا أيضا لهم إن جميع الناس متساوين عند الله وإن الشئ الذى
يفرقهم من بعضهم بعضا فهو العقل والفضائل والعلوم فقط وبين
المماليك ما العقل والفضائل والمعرفة التى تميزهم عن الآخرين
وتستوجب أنهم يملكوا وحدهم كلما يحلوا به حيات الدنيا^(٨) .

حينما يوجد أرض مخصصة فهى مخصصة للمماليك والجوارى الأجهل
والخيل الأحسن والمساكن الأشهى فهذا كله لهم خاصاً .

إن كانت الأرض المصرية التزام للمماليك فليورون الحجّت^(٩) التى
كتبها لهم الله فلكن رب العالمين هو رؤوفا وعادل على البشر بعونه تعالى
من اليوم فصاعدا لا يستثنى أحدا من أهالى مصر عن الدخول فى
المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية فالعقلا والفضلا والعلماء
بينهم سيديروا الأمور^(١٠) وبذلك يصلح حال الأمة كلها .

سابقا فى الأراضى المصرية كانت المدن المعظمة والخليجات الواسعة
والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله إلا الطمع وظلم المماليك .

أيها القضاة والمشايخ والأئمة (الائمة) وبأيها الشورى باجبة^(١١) وأعيان
البلد قولوا لأمتكم إن الفرانساوية هم أيضا مسلمين خالصين^(١٢) وإثباتنا
لذلك قد نزلوا فى رومية الكبرا وخربوا فيها كرسي البابا الذى كان يحث
دائما النصرارا على محاربة الإسلام ثم قصدوا جزيرة مالطه وطردها منها
الكراللية^(١٣) الذين كانوا يزعموا أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة
المسلمين ومع ذلك الفرانساوية فى كل وقت من الأوقات صاروا المحيين
الأخصيين لحضرة السلطان العثمانى وأعدا أعداياه^(١٤) آدم الله ملكه

ملحق رقم (٢)

النص الكامل لمنشور بونايرت الأول إلى المصريين^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله
لا ولد له ولا شريك فى ملكه

من طرف الجمهور الفرانساوى^(٢) المبني على أساس الحرية
والنسوية^(٣) السر عسكر^(٤) الكبير بونايرت أمير الجيوش الفرانساوية
يعرف أهالى مصر جميعهم أن من زمان مديد السناجق الذين يتسلطوا
فى البلاد المصرية يتعاملوا بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرانساوية
ويظلموا تجارها بأنواع البص^(٥) والتعدى فحضر الآن ساعة
عقوبتهم .

وحسرتا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك الجلوبين من
جبال الأبازا والكرجستان^(٦) يفسدوا فى الإقليم الأحسن الذى يوجد فى
كرة الأرض كلها فأما رب العالمين القادر على كل شئ قد حتم على
انقضا دولتهم .

بأيها المصريين قد يقولوا لكم إننى ما نزلت فى هذا الطرف

• المادة الخامسة •

الواجب على المشايخ والقضاة والأئمة أنهم يلازموا وظائفهم وعلى كل واحد من أهالي البلد أنه يبقى في مسكنه مطمئن وكذلك تكون الصلات قائمة في الجوامع على العادة والمصريين بأجمعهم ليشكروا فضل الله سبحانه وتعالى من انقراض دولة المماليك قايلين بصوت عالي أدام الله إجلال السلطان العثماني أدام الله إجلال العسكر الفرنسي لعن الله المماليك وأصلح حال الأمة المصرية •

تحريراً بمعسكر اسكندرية في ١٣ من شهر مسيدور سنة ٦ من إقامة الجمهور الفرنسي معنى في أواخر شهر محرم سنة ١٢١٣ هجرية^(١٩) •

وبالمقلوب^(١٥) المماليك امتنعوا من إطاعة السلطان غير ممثلين لأمره فما طاعوا أصلاً إلا لطمع أنفسهم •

طوبى ثم الطوبى لأهالي مصر الذين يتفقوا معنا بلا تأخير فيصلح حالهم ويعلى مراتبهم طوبى أيضاً للذين يقعدوا في مساكنهم غير مايلين لأحد من الفريقين المخارين فإذا يعرفونا بالأكثر يتسارعوا إلينا بكل قلب •

لكن الويل ثم الويل للذين يتحدوا مع المماليك ويساعدوهم في الحرب علينا فلا يجدوا طريق الخلاص ولا يبقى منهم أثر •

• المادة الأولى •

جميع القرى الواقعة في دائرة قرية بثلة ساعات عن المواضع التي يمر بها العسكر الفرنسي فواجب عليها أنها ترسل للسر عسكر بعض وكلا من عندها لكيما يعرفوا المشار إليه أنهم طاعوا وأنهم نصبوا السنجاك الفرنسي^(١٦) الذي هو أبيض وكحلي وأحمر •

• المادة الثانية •

كل قرية التي تقوم على العسكر الفرنسي تحرق بالنار •

• المادة الثالثة •

كل قرية التي تطيع العسكر الفرنسي الواجب عليها نصب السنجاك الفرنسي وأيضاً نصب سنجاك السلطان العثماني مجنبا دام بقاءه •

• المادة الرابعة •

المشايخ في كل بلد ليختصوا حالاً جميع الأرزاق^(١٧) والبيوت والأماكن بتاع المماليك وعليهم الاجتهاد الزايد لكيلا يضيع أدنا شيء^(١٨) منها •

هوامش

- (١) انظر شكل (٥) .
- (٢) يقصد : الجمهورية الفرنسية
- (٣) أي ، على مبدأ الحرية والمساواة .
- (٤) قد تكتب أيضا « سارى عسكر » أو « صارى عسكر » ، ومعناها القائد العام .
- (٥) بنصه يقال : يلقبه ويلقبه من المال ، أي لم يترك له شيئاً .
- (٦) الأنازا (أو الأنازه) من شعوب القوقاز ، والكرجستان من جورجيا . وفي الأصل الفرنسي « achetés dans la Georgie et le caucase »
- (٧) في الأصل الفرنسي « وإننى أحترم الله ورسوله والقرآن أكثر من المماليك » : Je respecte, plus : que les mameluks, Dieu, son Prophét et Al Corân.
- (٨) أي : كل ما نعمل به الحياة الدنيا .
- (٩) أي : فليظهروا الحجة .
- (١٠) العبارة في الأصل الفرنسي أكثر تحديداً فهي تقول « Gouverneront » أي « سيتولون الحكم » .
- (١١) نعى ها كبار الأعيان . وكانت هذه الكلمة التركية تطلق كذلك في الاصطلاح المتخصص

- على الضباط حاملى رتبة « جوريجى » ، وهى تعادل رتبة « النقيب » الحالية .
- (١٢) فى الأصل الفرنسى « أصدقاء للمسلمين الصادقين » : amis des vrais musulmans
- (١٣) المقصود فرسان القديس يوحنا الأورشليمى ، وهم طائفة دينية تكونت فى مدينة القدس فى أعقاب الحرب الصليبية الأولى (أوائل القرن الثانى عشر) وبعد عدة أحداث استقرت فى جزيرة مالطة . وقد اتخذت حكومة الثورة الفرنسية عدة إجراءات ضد أتباع هذه الطائفة وأملاكها . ثم فردت حكومة الإدارة (المديركتور) احتلال جزيرة مالطة نفسها بواسطة الحملة الفرنسية بقيادة بوناپرت ، وهى فى الطريق إلى مصر . انظر ص ٥٥
- (١٤) أى : وأعداء أعدائه
- (١٥) أى : وعلى العكس من ذلك
- (١٦) أى : المعلم الفرنسى
- (١٧) جمع « رزقة » ومعناها : أرض أو غيرها مما يُغزل ، بصرف ربعها على أوجه معينة .
- (١٨) أى : أدنى شيء
- (١٩) يوافق هذا التاريخ أول يوليو عام ١٧٩٨ م ، و ١٧ محرم عام ١٢١٣ هـ .

ملحق رقم (٣)

نص رسالة مراد بك الى الجنرال متو^(١)

صور^(٢).....

جواب من حضرة أمير اللواء مراد بك أمير الحاج سابقاً خطاباً الى
حضرة سارى عسكر عبد الله متو أمير الجيوش الفرنساوية مضمونه
إن سألتهم عننا فإننا طيبين بخير ولم نسأل إلا عنكم وغير ذلك ان
حضر لنا جوابكم وعرفتنا بما حصل الى حضرة محنا العزيز صارى
عسكر كبير وهذا أمر الله تعالى لم أحداً بيده حيلة وأمر الله تعالى لا بد
عن نفاذه والذى سلط على قتله مثل واحد كبير زى ده لم هو
شأن^(٣) وبقا خابن وقليل المروة ولكن من قديم الزمان الخوانة لهم
وكل احدا جزائه على الله تعالى وذكرنا لنا فى جوابكم أن الجمهور^(٤)
سلموا لكم كامل الأمر والحكم وحصل لنا غايت الفرح والسرور لأن
سابق بلغنا عنكم الأخبار الطيبة وشكرانية عن حضرتكم والناس جميعاً
بمدحكم بكل خير واحنا الآخرين حصل لنا فرح بذلك وزاد حيناً
نظرفكم وإنشاء^(٥) الله تعالى يكون راحتنا على الله تعالى وعلى حضرتكم
السعيدة وإننا على الخيبة والشروط على ما هو عليه حكم الأول وإنشاء^(٦)

خطاب مراد بك إلى الجيرال منو يعزية في مصرع كبير ويؤكد ولاءه لسلطات الحملة

الله تعالى تزيد المحبة والتوفيق وقبل تاريخه أرسلنا لكم جواب بصحبة
الأمير ابراهيم كنتخدا تابعنا وعرنا الأمير ابراهيم كنتخدا يعرف
حضر تكم عن راحتنا وحضر تكم تتحملونا وتقبلوا عذرنا في سنة تاريخه
لأن حاصل لنا تعب من قبل المعاش والأمر الى الله تعالى والى حضر تكم
السعيدة وترسلوا لنا كامل أخباركم لأجل الطمأنينة عليكم والله تعالى
يحفظكم .

في ١٥ شهر صفر الخير سنة ١٢١٥ (٧)

صور
جولس مرفوعه اول التور ولا يمكن ان يفتح ثانيا خطابا الى جمع شاري شادي
عنه مينو امير الجيرال منو يعزية معه
شانه من ماما طين حيدر وريشا الى الماغدي وغيره من جمع
صوبكم وترسو انا جمع الى جمع محبا لورطاري عند كل واحد وصل امره شادي
في اجناسه وسجلوا امره شادي ابراهيم شادي والدي شله على هذا سن واحد
سنتين ، لم هو شان الامري ويسعا جان وطلبه نروز ولكن مره
الزمان احواء لم وكل احد جازاه على شادي ودر كروز الماء جو كمر
وهو شادي لم كامل الامري حكم وحصل لنا غايب نروز وشور ابراهيم
علم الاحبار الطبيه وشكره بغيره من الاشيا جميعا عن كل حال
لما الامر في جعلنا وخرجنا بك في زاد حنا الفريكم وانا ليد في البر
راعتنا على ارضه وعلى حفره المنعده وانا على الحمد والتدرة على ما هو عليه
سلك الاول وانا انشائي نروز المحبة والتوفيق وقبل تاريخه ابراهيم
الامر ابراهيم تغد انا وعرنا لاجر ابراهيم لتعمل نروز حفره عن راحتنا
حفره تتحملونا وتقبلوا عذرنا في سنة تاريخه من حاصل لنا تعب من قبل المعاش
والى الله تعالى والى حفره السعيدة وترسلوا لنا كامل أخباركم لأجل الطمأنينة
عليكم والله تعالى يحفظكم
١٥ صفر ١٢١٥



هوامش

- (١) انظر شكل (٨) .
- (٢) إشارة إلى أن المرسل بعث بصور من هذه الرسالة إلى سائر جنرالات الحملة .
- (٣) كلمة غير واضحة في الأصل .
- (٤) يفصد حكومة الجمهورية الفرنسية .
- (٥) (٦٠٥) ان شاء .
- (٧) يوافق ٨ يوليو ١٨٠٠

إن كان (إن كان) يظهر كلامنا هذا بخلاف الواقع ثم إن هذا أمر يدركه أيضاً خادمتكم الخاص حضرة الجنرال يعقوب ومع ذلك لأجل طبيعه الوديع مختار كيف يتصرف في مثل هذه الدعوه والله تعالى يحفظكم .

من عند توابعكم المباشرين

ملطى وأنطون^(٣)

ملحق رقم (٤)

نص عريضة زعماء الأقباط إلى الجنرال منو^(١)

حضرة صارى عسكر العام

إن جنابكم من قبل ما فيكم من العدل والحلم والفضله أرسلتم تسألونا بأن نوضح لكم ما نحن به من القهر فنحن قبل الآن لم نقصد كشف جراحنا التي كانت في كل يوم تتسع شيئاً فشيئاً أولاً تسليماً للتقارير وعشماً بكون كل واحد منا يرجع لذاته ويحاسب نفسه تانياً خوفاً من أن يقال عنا لئنا نحب السجس^(٢) ونواخذ (نؤاخذ) بذلك من الحكام ثالثاً ليلاً (لئلا) يتضح كأننا أخصام لأخواتنا وقاصدين الشكوى عليهم ولكن من حيث جنابكم أبو الجميع وطبيب الرعايا وقد زاد علينا الخال حتى ظهرنا من جملة العصاه على أوامرهم وقد قاصصتمونا لذلك فاقضى الحال أن نستغيث بكمسيكم تعينوا بأمرهم أناساً من أهل الفطنه خالين الغرض ممن ترونها أنتم يقعدوا في ما بيننا ويتصرفوا في حال حسابتنا وفي النهاية بعد ان يردوا الجواب لجنابكم لكم التصرف في ما تأمرون به ومع ذلك فترجوكم بأن لا تظنوا بكوننا قاصدين بعرضحالنا الشكوى على أحد ام قصاصه بل قصاصنا نحن بوجه خاص

هوامش

(١) انظر شكل (٩) . والعريضة مرفوعة إلى الجنرال منو - كما جاء في الترجمة الفرنسية ، وإن كانت غير مؤرخة .

(٢) السجس : الكدر والتغير ، والمقصود الأعمال الردية .

(٣) كان ملطى من أكبر زعماء الأقباط أيام الحملة الفرنسية . وقد تولى في عهد بوناپرت رئاسة محكمة القضايا بالقاهرة ، وهي تجمع بين اختصاصات المحكمة المدنية التجارية وإدارة الشهر العقارى وتتكون من اثني عشر عضواً . وكذلك كان أنطون من كبار الأقباط وأكثرهم غنى وكان يعرف باسم أبو طاقية .

أ - من قسم المحفوظات (الأرشيف) بوزارة الخارجية البريطانية

ملحق رقم (٥)

رسالة من القبطان جوزيف إدموندس قائد الفرقاطة بالاس إلى فخامة الإيرل سانت فنسنت وزير البحرية البريطانية على ظهر الفرقاطة بالاس جزيرة مينورقا في ٤ من أكتوبر ١٨٠١ سيدى النورد

استبحت لنفسى أن أرفع إليكم مباشرة المذكرات المرفقة بكتائى هذا ، اعتقادا منى بأنه قد يكون من المفيد لحكومة بلادى أن تعلم أن بعض الأشخاص الذين يطلقون على أنفسهم « الوفد المصرى » موجودون الآن فى باريس .

لقد كان بمن استقل السفينة بالاس التى اتولى قيادتها من مصر رجل قبضى ذو سمعة طيبة ، وهو من زعماء طائفته وله بينها نفوذ كبير . وقد نصبه الفرنسيون قائدا على فيلق برتبة جنرال لكى يعاونهم .

أوليت هذا المنفى العائر الحظ بعض الرعاية فأخذ يحدثنى فى شئون وطنه . وقد أعرب لى عن اعتقاده بأن أى نوع من الحكم لبلاده أفضل من حكم الترتك (العثمانيين) لها ، وأنه انضم إلى الفرنسيين بدافع وطنى حتى يمكنه أن يخفف عن مواطنيه ما عانوه ، ولكن الفرنسيين خدعوهم

شكل (٩) عريضة زعماء الأقباط

Handwritten text in French, likely a translation or commentary on the petition. It is written in a cursive script and occupies the left side of the page.

من صرنا حازى محكمه
 ان صنا بكم من قبل ما قيسر من قبل
 والى ان انقله لرسالتنا لولا بان نوضع
 لكون ما من به من القدر فنحن قبل الان
 لوزن صحتنا فى ايامنا القديسات وكما يوم
 تتسبح شيئا فشيئا اولا لاسلكنا للتناور وبعثنا
 يكون كل ما كلسنا بوجوهنا ويطاب
 نفسه تانبا نخره فامن ان نقال صنا
 اننا نالنا خمس وثمانه مائت من الحكم
 تالنا لينا بيقم كائننا انصام
 لا هواننا وقاعدنا الكومى عليهم
 ولكن من حيث صانك البوليس
 ولطيب الهيايا وقد نزل علينا اللان
 حتى لم ننا نجهلت العصا
 على اوارى كرك وقد فاصصنا نالنا
 ناقصنا المال ان نستغنى بكم
 تعينوا بامر ك اننا كائن اصل
 الفلتنا خالدين الغرض من
 تروهم انتم بقعدنا فى ما بيننا ونشعروا
 فى ما نجاننا وفى النبايه
 بعد ان برود الجواب لجاننا
 لك التبرق ما نأرون به
 ومع ذلك فنريد ك بان لا نظنوا
 بكوننا قاعدين برفجاننا
 الشكوى على ايام قصاصه
 مل قصاصنا نحن بزعنا
 ان كان بظهر كلسنا هذا لان الرفع
 لم ان هذا امر ب ك اننا كرك
 الخامس خسرنا البنا ان يعقوب
 وبع ذلك لابل طبعه الروبع
 مختار كين يتفرق فى مثل
 هان الذمونا والله تعالى يحفظكم
 من عند توابكم المباشر
 ملقى وانظرون

Handwritten signature or stamp at the bottom of the petition.

فأصبح المصريون الآن يحتقرونهم كما كانوا يحتقرون الترك ، وأنه ما يزال يأمل في خدمة بلاده عن طريق الحكومات الأوربية ، ويرى أن ارتحالها إلى فرنسا قد يمكنه من ذلك . وقال إن الفرنسيين جعلوه يعتقد أن دولتهم أقوى دول أوروبا ، وأنه لم يكن يعرف إلا قبلا عن القوة البحرية الهائلة لبريطانيا ، ولكنه مع ذلك كان على يقين من أنه بغير موافقة بريطانيا فإن رغبته في أن تتمتع بلاده بحكومة مستقلة لن يقدر لها أن تتحقق . وقد أبلغني صديقه لاسكاريس الذي كان يترجم أقواله لي أن الجنرال المعلم يعقوب يرأس وفدا فوضه أعيان مصر لمفاوضة الدول الأوربية في أمر استقلالها . وفي أثناء الرحلة مات الجنرال وقام ترجمانه بتحرير المذكرة المرفقة بكتايب هذا وهي مكونة من أجزاء تتضمّن خلاصة لما دار بيننا من أحاديث ، إذ كان الجنرال قبل وفاته قد أعرب عن رغبته في أن أبلغ فحوى هذه الأحاديث إلى القائد العام كي يبلغه بدوره إلى الحكومة البريطانية . وقد أكد لي السيد لاسكاريس أن الوفد ما زال قائما وأن أعضائه مسافرون معنا على ظهر السفينة ولم أستطع أن أتبين هل لاسكاريس نفسه عضو في هذا الوفد أو أنه لم يكن سوى سكرتير مترجم له . غير أنني اعتقد أنه رجل مغرب في الخيال ، وأظن أن أصله يرجع إلى إقليم بيدمونت وأنه من فرسان جزيرة مالطة الذين تركوا الجزيرة مع جيش بوناپرت . وقد تعهدت للمعلم يعقوب بألا أستعمل أو تستعمل الحكومة البريطانية مضمون أحاديثه في أي وقت من الأوقات بما يمكن أن يعود عليهم بالضرر . ولما كان هذا الوفد ، الذي لا يمكنني أن أحدد مدى صلاحياته ، قد اتجه في الغالب إلى باريس للإقامة بها ، فقد رأيت من الضروري إبلاغكم رأسا بهذه المذكرات والمعلومات ، إذ قد يمضي بعض الوقت قبل أن تتاح لي فرصة إبلاغها أولا إلى قائد العام اللورد كيث . وأرجو ان تتفضلوا فتقروا مسلكني هذا .

ولي عظيم الشرف ياسيدى اللورد أن

ملحق رقم (٦)

مذكرات مرفوعة للقبطان جوزيف إدموندس لتذكيره مستقبلا
بالنقاط الرئيسة لأحاديثنا السياسية على ظهر سفينته

- ١ -

إن الكتاب المرفقة به هذه المذكرات موجه إلى فخامة اللورد^(١) . وهو يبدو للوهلة الأولى مجرد التماس بسيط يرجوه أن يهتم بنا نحن المصريين التمساء . ولكن من الضروري في الحقيقة أن ينظر إليه على أنه ملخص للأحاديث السياسية التي دارت بيننا على ظهر السفينة . ولما كان من عدم التبصر في الوقت الحاضر عرض خطتنا بشكل أكثر تفصيلا ، فإن هذه المذكرات الموجزة المكتوبة على عجل يمكن أن تكون كافية لتذكيرك بأهم نقاط أحاديثنا . وعندما يجين الوقت الملائم لرفعك إيادها مباشرة إلى حكومتك أو لإبلاغها لفخامة اللورد ، فإن المصريين ، لوثوقهم في سجاياك الكريمة ، يتركون لحسن فطنتك أن تثير اهتمام فخامة اللورد بقضيتهم ، حتى يمكن أن يكون لنا سندا ، سواء بما سوف يكتبه إلى مجلس الوزراء البريطاني ، أو بما سوف يقوم به عند عودته إلى إنجلترا . وإنما لنؤكد أن فخامة اللورد سوف ينتصر بذلك لقضية فيها

توشك الامبراطورية العثمانية على الانهيار . ولذا فيهمّ الإنجليز قبل أن تقع الواقعة أن يلمسوا لأنفسهم من الوسائل المؤكدة ما يكفل لهم الإفادة من ذلك الحدث عند وقوعه فيحققوا مصالحهم السياسية . وإذا كان من المستحيل عليهم أن يستعمروا مصر — كما استحال ذلك من قبل على فرنسا — فيكفى أن تخضع مصر المستقلة لنفوذ بريطانيا صاحبة التفوق في البحار المحيطة بها . ولاشك في أن استقلال مصر سوف يحقق لها رخاءها ، ولكنها لن تكون إلا دولة زراعية غنية بمحاصلها الوفيرة التي تنتجها تربتها الخصبة وتجارها التي تنفرد بها مع قلب افريقيا .

وهذه المزاي سوف تعود بالفائدة على بريطانيا التي يهملها — بحكم مركزها في افند — أن تتاجر مع مصر وما حولها .

لقد كان مراد بك يقول — وربما كان على حق — إن كفار الغرب (هكذا كان يسمى الدول الأوربية) أصبحوا يعرفون مصر معرفة تامة ، وأن الكل يسعى للاستيلاء عليها ، مما سيجعل منها موضوعا دائما للخلاف فيما بينهم . وقد يقال إن بريطانيا لا حاجة بها إلى الاستيلاء على مصر إذ أن لها من سيادتها البحرية ما يجعلها تستأثر بتجارة مصر الخارجية ويضمن لها بالتالي أن يكون لها ما تريد من نفوذ فيها . ولكن ماذا سيكون من أمر هذا النفوذ إذا ما عادت فرنسا من جديد الخليفة الطبيعية للباب العالي ، وإذا ما عمل الباب العالي من ناحيته على إرضاء فرنسا أكثر من بريطانيا ؟ وكيف يكون الوضع إذا ما مضت الدولة العثمانية في إجراءاتها فأغلقت مراقبتها في وجه الإنجليز ؟ ثم أليس من احتمال كذلك أن يضغط الفرنسيون على حلفائهم ليأخذوا — برا — تدابير عدائية أكثر مع الإنجليز ، يمكن أن تقضى على تجارتهم في بلاد

نفع لبلادها ، وليس هناك ما يمكن أن يكون أسى غاية لسعى لورد نيل مثلته .

إذا افترضنا أن ما سوف يعرضه « الوفد المصرى لذى الحكومات الأوربية » ، باسم المصريين الذين قوضوه ، يبدو قليل الأهمية في نظر تلك الحكومات ، فإنكم ياسيادة القبطان توافقوننا على الأقل على أن الدول الأوربية لن تفعل أجد أو أكرم من أن تبدد بقرار سياسى بسيط ظلمات الجهل والهمجية التي تخيم على هذه البلاد الفاتحة الصيت . لقد كانت هذه البلاد مهدا لاستارتنا ولعلومنا وفنوننا . وبحمل القول أنها كانت المركز الأول للحضارة التي نقلها عنها اليونان ومنها وصلت إلينا . وإذا كانت مصر بماضيا المزدهر العظيم لا تستطيع أن تثير في دول أوروبا شعور العرفان بصنعيها وما لها من فضل ، فهي تستطيع على الأقل أن تثير فيها شعور العطف عليها . فإذا ما تحقق ذلك وردوا إليها أمرها أمكنها أن ترضى كل الدول الضامعة فيها ، دون أن تهدد واحدة منها في مصاحها .

لن يمضى وقت طويل حتى تؤيد بريطانيا حل القضية المصرية على الأسس التالية وفي هذه الأثناء قد تتقدم الحكومة الفرنسية نفسها باقتراح ذلك ، وعندئذ ينبغي ألا تنسى الحكومة الإنجليزية أن ما يقترح إنما هو نتيجة جهود الوفد المصرى في باريس ، ومن ثم فليس هناك ما يدعو إلى أن تنظر الحكومة الإنجليزية إلى ذلك بشيء من الرية . وإذا ما تقدمت فرنسا بمثل هذا المشروع السياسى ، فإنها سوف تفعل ذلك على سبيل المجاملة ، لأن مصلحتها في نجاح المشروع أقل من مصلحة بريطانيا . والذي لا شك فيه أن حكومة الجمهورية الفرنسية لا تزال راغبة في امتلاك مصر مرة اخرى .

وحازمة ووطنية كما كانت حكومة شيخ العرب همام في الصعيد التي رويت لك قصتها . ولاشك أنها عندئذ سوف تكون موضع الاحترام والطاعة والحب .

ثانيا : كيف يدافع المصريون عن استقلالهم ؟ وهل سيكون هذا الدفاع ضد دولة أوربية ؟ إن من غير المتوقع حدوث ذلك إلا بعد وقت طويل يكون قد تم في خلاله تنظيم جيش وطني قادر على رد الاعتداء . أما إذا كان الاعتداء من جانب الترك أو المماليك فتعتقد أن الدول الأوربية لن تسمح بحدوث ذلك . ومن جهة أخرى فإن المصريين يمكنهم أن يعتمدوا على قوات أجنبية تعمل لحسابهم يتراوح عددها بين ١٢٠٠٠ و ١٥٠٠٠ جندي يكفون تماما لصد الترك عند الصحراء ولسحق المماليك داخل مصر ، وتكون هذه القوات في الوقت نفسه نواة الجيش الوطني . ولما كان العثمانيون يفعلون أى شيء من أجل المال فمن الممكن بذله لهم لردهم عن مصر . ولقد كان المماليك يستعملون هذا السلاح كلما رأوا سحب السياسة تتلبذ ضددهم في القسطنطينية .

وينبغي ألا يفوتنا أن نذكر في هذا الصدد أن المصريين منقسمون إلى عدة طوائف ، وأن هذا الانقسام من شأنه أن يساعد على دفع هذه الطوائف بعضها ببعض من أجل حفظ التوازن بينها . وللوفد المصرى صلات بهذه الطوائف جميعا دون انحياز لواحدة منها على الأخرى . وهذه الصلات قائمة في الخفاء وستظل خافية تماما عن الحكومة التركية في مصر . وهذه الخيبة أمر لا بد منه تجاه حكم مستبد متربص بالناس ، ولن يتوانى عن البطش بالأخوة دعاة الاستقلال والفتك بهم عن آخرهم إذا استطاع أن يكشفهم . ولقد استطاع الذين هجروا مصر من هؤلاء الأخوة مع الجيش الفرنسى أن يتحدوا طغيان الترك ، ولكن الأمر ليس كذلك بالنسبة للأخوة الذين بقوا في مصر ، فهؤلاء يعيشون تحت السيف والعصا ، ولا يملكون إلا إخفاء حقيقتهم والظهور بمظهر عبيد السلطان المخلصين .

الشام وفي البحر الأحمر ؟

- ٦ -

إن مشاعر المصريين نحو الفرنسيين ترجع إلى أساليب هؤلاء في الحكم في أثناء احتلالهم لمصر . ولست في حاجة إلى إعادة الكلام في هذا الموضوع ، إذ أعتقد أنكم يمكن أن تستعيدوا بسهولة ما دار بيننا من حديث حوله . وعلى هذا فإن كل شيء ، بما في ذلك مشاعر المصريين تجاه الفرنسيين وما يمكن أن يشعروا به تجاه الإنجليز كلما ازدادت معرفتهم لهم ، يثبت أن مصر المستقلة لن تكون إلا موالية لبريطانيا . ومن ثم فعلى بريطانيا أن تعمل على استقلال مصر . أو على الأقل أن تؤيد هذا الاستقلال بعد حدوثه . وذلك على ضوء ما هو متوقع من تطورات في مستقبل الأيام .

- ٧ -

إذا فرضنا أن حكومات الدول الأوربية سمحت باستقلال مصر ، فكيف يحكم المصريون أنفسهم ؟ وكيف يدافعون عن استقلالهم ؟

أولا : لا يسمح المجال في هذه المذكرات المحررة على عجل بالدخول في تفاصيل مشروع الوفد المصرى لحكم البلاد . ويكفى الآن أن نلاحظ أن قيام حكم الاستقلال لن يكون نتيجة انقلاب مبعثه وعى أمة اضطرت فيها مختلف الآراء الفلسفية ، ولكنه سيكون نتيجة تغير جبرى تفرضه القوة القاهرة على قوم مسلمين جهلاء يكادون لا يعرفون سوى عاطفتين تحركان سلوكهم ، هما المصلحة والخوف . فإذا استطاعت الحكومة الجديدة أن تسخ على حياة الناس شيئا من الرخاء وأن تعمل على زيادة دخولهم ، وهو أمر ليس بالعسير ، فمن المؤكد أنها ستنال تأييدهم بحماس . وكيف لا يكون الأمر كذلك وأى حكومة في العالم أفضل من الاستبداد التركى . فلنكن الحكومة الجديدة إذا عادلة

والفرنسية ، أو شكاً منها في وجود دسيمة ما من دسائس فرنسا .

- ١١ -

لكي تسهل مراسلتنا من فرنسا أو من غيرها يمكنك ياسيدى القبطان أن ترسل ما تريد الى السنيور الكونت انطون كاسيس (قسيس) المقيم في تريستا ، وهو يقوم بتحويلها الى حيث يقيم الوفد ، على أن يوضح ذلك بوضع اسمي تحت اسمي على كل رسالة . أما الرسائل التي قد توجه اليها من إنجلترا ، فإن وصولنا إلى باريس سوف يشيع أمره فتيسر عندئذ معرفة أين نقيم ، وبهذا يمكن أن أتسلم رسائل حكومتكم بسهولة . ولكن نلزم الحيلة التامة فيما يتصل بهذه النقطة الأخيرة حتى لا تتسرب أية شكوك إلى الحكومة الفرنسية .

ظهر السفينة پلاس في ٢١ سبتمبر ١٨٠١

- ٨ -

إن المصريين كافة ، والوفد المصرى لدى الدول الأوروبية بوجه خاص ، سيذولون كل مافي وسعهم من جهد ليحرروا أنفسهم بطريقة ما من النير الذى يتقل كاهل بلادهم التعسة . ولكن إذا خاب سعيهم وجاءت اتفاقيات الصلح العام بعكس ما يرغبون ، وشاء القدر أن يعود الترك إلى امتلاك هذه الأقاليم الجميلة الشهيرة وتعريضها بذلك لتجدد العدوان عليها ، فأقل ما يلتمسه المهاجرون المصريون من الدول المتعاقدة أن تكفل ضم من الضمانات ما يدرأ عنهم شر انتقام الترك إذا ما عادوا لوطنهم .

- ٩ -

بالرغم من أن الوفد المصرى لا يعمل إلا من أجل تحقيق مشروع سياسى فيه نفع لجميع الحكومات بما في ذلك الحكومة التركية (وبالرغم مما يبدو من غرابة هذا القول فيمكننا البرهنة على صحته) ، فقد تعرض ظروف لا بد فيها من المحافظة على أسرار المفاوضات . ولذلك فإننا نرفق بهذا « شفرة » يمكن استعمالها في مراسلاتنا إذا اقتضى الأمر ذلك .

- ١٠ -

يرى الوفد المصرى حرصاً منه على نجاح المفاوضات المزمعة ضرورة كتمان أمر ما فاتحناكم فيه من مقدمات لها ، وكذلك ما يمكن أن تبلغوه لفخامة اللورد ، عن فرنسا وعن أى طرف يستطيع عرقلتها . إن خطة الوفد أن يعمل في أوروبا على أن تكون فرنسا هي التي تبدأ بعرض المقترحات الأولى على بريطانيا ، وتكون بريطانيا عندئذ قد اقتنعت بما في مشروع الاستقلال المقترح من مزايا فتؤيده . وبهذه الطريقة فإن الوفد المصرى لن يتعرض لأن يرى الحكومة الإنجليزية ترفض المشروع بمجرد علمها به بسبب العداء التقليدى بين الأمتين الإنجليزية

١٢٦

هوامش

(١) يقصد الأميرال اللورد كيث . إذ حسب أن إيموندس سوف يرفع الأمر به باعتباره رئيسه المباشر .

١٢٧

لمصر ما ترضاه لها من نظم عندما يعود إليها من فرنسا .

إن هذا سوف يحدث يافخامة القنصل الأول إذا تفضلت — من أجل مجدك ومن أجل المصلحة السياسية للجمهورية الفرنسية — فمددت يد المساعدة للمصريين التعساء الذين وضعت عنهم من قبل أغلالهم التي عادوا ينوعون بها من جديد ، وتكرمت فأحسنت استقبال وكلاتهم في باريس . إننا نأمل أن يكون استقبالنا في العاصمة الفرنسية بمثابة اجتماع شرقي يجدد لك ذكرى الفتح العظيم الذى افاء الله به عليك ثم ضاع منك . ولا بد أنك — ياسيدى القنصل الأول — شديد الإحساس بألم ما فقدت ، ولكنك إذا عملت في معاهدات الصلح على أن تكون مصر مستقلة فسوف تعوض خسارتك فيها مائة مرة . إن هذه هى آمانياتنا التى أخذنا على أنفسنا عهدا بالسعى إلى تحقيقها .

عن الوفد المصرى
وكيله
نمر افندى

حاشية : أعنا الانكشارية^(٢) وعضو الوفد الذى سبق أن عرفه فخامة القنصل الأول فى القاهرة يرجونى أن أذكرك بأنه لن ينسى ما غمرته به من عطف حينذاك .

هوامش

(١) نسخة التاريخ المجرى — حسب الجداول التوفيقية — هو ١٥ جمادى الأولى
(٢) هو المشرح الأئبى المعروف (١٦٤٠ - ١٥٨٠ ق م) الذى وضع ليلاده عدة قوانين حررتها من قيود كثيرة .
(٣) هو عبد العال أعنا الأنكشارية الذى سبق ذكره خروجه من مصر مع الجيش الفرنسى (انظر ص ٤٧)

ب — من قسم المحفوظات (الأرشيف) بوزارة الخارجية الفرنسية

ملحق رقم (٧)

من نمر افندى نيابة عن الوفد المصرى إلى القنصل الأول بونابرت إلى القنصل الأول للجمهورية الفرنسية من الوفد المصرى الذى يكن له أعظم التقدير .

المحجر الصحى بمارسيليا فى أول فنديمير من السنة العاشرة للجمهورية (٢٣ سبتمبر ١٨٠١) ١٨ صفر ١٢١٦^(١)

فى قديم الزمان ، إبان تلك العصور الموغلة فى القدم ، عندما كانت فرنسا فى حالة الفطرة تكسوها الثلوج والغابات ، كانت مصر متحضرة مزدهرة ينهل مشرعو الإغريق من معين علمها ومعرفتها . ثم دار الزمان دورته وشاء القدر أن يفقد مصريو العصر الحاضر أحقاد رواد الحضارة فى الماضى إلى فرنسا وهى تنعم بحكمك الرشيد ، ليتعرفوا على نظم أمة يحبونها وليتقنوا على ما استحدثته من وسائل لم تسبقها إليها أمة أخرى ، مكتنتها — وهى الجمهورية الناشئة — من المحافظة على مكاسبها الحربية بما سنته من نظم سياسية جديدة وكأ أن سولون (Solon)^(٢) عند عودته لبلاده من مصر شرع للإغريق ما اقتنسه من النظم المصرية ، فان الوفد المصرى الذى فوضه المصريون الباقون على ولائهم لك سيشرع

الإثيوبية . وإذا كان الملك قد أخفق في مسعاه ، فإن الجمهورية الفرنسية اليوم في ظل حكم القنصل الأول استطاعت أن تحقق ما عجزت عن تحقيقه الملكيه المطلقة الاستبدادية .

وإن الوفد المصرى الذى ينوب عن الأمة المصرية ليجسد وحده كل ما يختلج في نفوس الذين أنابوه عنهم من شعور بالمصلحة المشتركة ، وما يحتشد في قلوبهم من أمان وما يملكون من فطنة وما يتمتعون به من نفوذ وثروة . وهو يعبر عما أجمعوا عليه مما يتمثل في رغبتين : الأولى هي القضاء على القوة العشوم التي عادت تستبد بهم من جديد ، والثانية هي وضع ثقتهم في فرنسا ليقينهم أن مصلحة الجمهورية الفرنسية ذاتها تقتضى ألا تحيب أملهم . وبناء على ذلك فنحن نتقدم إلى سعادة الوزير باقتراح : لقد تكبدت فرنسا في الشرق خسارة جسيمة ، فلم لاتتخذ من هذا الوفد وسيلة لتعويض ما خسرتة ؟ إنك إذا تفضلت فدعوت الوفد إلى لقائك في باريس قبل توقيع الاتفاق التمهيدى مع بريطانيا ، فإننا نستطيع أن نؤكد لك أن فرنسا سوف تحتفظ بنفوذها السياسى في الشرق ونحميه مما قد يفقدها إياه زمتا طويلا نتيجة للجلاء عن مصر وما تطور إليه أمرها الآن ، ونتيجة لمؤامرات الدول التي تخشى بحق زيادة نفوذ فرنسا . بل نستطيع أكثر من ذلك أن نتأكد أن فرنسا - إذا أرادت - يمكنها عن طريق الأمة المصرية التي ستكون موالية لها مد نفوذها نحو أواسط افريقيا . وهكذا يتحول ترككم مصر للإنجليز من نكبة إلى سبب لمجد القنصل الأول ومصدر رفاهية للأقاليم الفرنسية في الجنوب .

ولا يرى الوفد المصرى في الوقت الحالى داعيا للإطالة : فهو يستطيع في جلسة واحدة في باريس أن يوضح مقاصده بما لا يستطيع في عشرين مذكرة مكتوبة . ونحن العرب نقدر في الحديث على التعبير عما نريد ، وإن كنا في الكتابة قد لا نستطيع أن نبلغ الغاية في يسر . وبالإضافة إلى

ملحق رقم (٨)

من عمر افندى إلى وزير الخارجية الفرنسية (تاليران)

(تاريخ الملحق السابق نفسه)

سيهبط إلى موانئ الجمهورية الفرنسية عدد كبير من المهاجرين الشرقيين الذين غادروا بلادهم مع قوات جيش الشرق التي تم جلاؤها عن مصر . والوفد المصرى ، بالرغم من أنه فقد رئيسه الجنرال يعقوب الذى قضى نحبه في أثناء السفر، يعلن كل ما يشعر به من ولاء وتقدير للجمهورية الفرنسية بويرى من الضرورى أن يلجأ إليك ياسعادة الوزير لتفضل وتضعه هو وأولئك المهاجرين تحت رعايتك وتشملهم بكرمك وعنايتك .

لقد كان لويس الرابع عشر يعمل في الظاهر على ضم كنيسة إثيوبيا إلى الكنيسة الرومانية (الكاثوليكية) ، ولكنه كان يسعى في الحقيقة لمد نفوذه السياسى نحو أقاليم وسط أفريقيا الجذابة الغامضة . ومن ثم بذل عدة جهود لم يقدر لها النجاح لكي يتعلم في فرنسا عدد من شباب القبط المصريين ، لأن بطريرك الأقباط هو نفسه رأس الكنيسة

مصادر البحث

هذا فتح مدركون لما تفرضه علينا كثرة مشاغلك السياسية من ضرورة الإيجاز في الرسائل . إننا نرجو التفضل بالرد على كتابنا هذا ، وأن تسمح لنا اذا تكرمت باستقبالنا في باريس أن نقابلك بزينا الشرقى ، فالمسلمون منا بالذات ليس من اليسير عليهم تغيير زعيم ، ثم إن هذه الأزياء الشرقية قد تذكر فخامة القنصل الأول بفتوحه السابقة وترضى حب الاستطلاع لدى من لم يتبعوه للشرق .

إن الوفد المصرى يعلم تماما أن وقت القنصل الأول ، الذى يدبر بنفسه شئون الحكم حتى فى أدق جزئياتها وتنعم الدولة برعايته ، أمن من أن ينفقه فى التندر بقراءة ما يرد إليه من الرسائل الخاصة . ولكننا نرجوه أن يقدر أن وفدنا ينفرد بطبيعة خاصة ، وأنه يصل إلى فرنسا فى ظروف معينة ، وأن كتابنا له المرفق بهذا له أهميته ، فيتفضل بتسلمه وينعم النظر فيه بحكمته العميقة .

القاهرة ، بدون تاريخ .

٧ - يعقوب نخلة رفيلة ، تاريخ الأمة القبطية ، القاهرة ، ١٩٢٢ .

ب - المراجع غير العربية

- 1 - Douan George, L'Egypte Independente. Le Caire, 1924.
- 2 - Homsy, Gaston, Le Général Jacob et L'Expédition de Bonaparte en Egypte, Marseille, 1921.
- 3 - La Jonquière, C. De, L'Expédition d' Egypte (1798-1801), Paris, 1899-1907.
- 4 - Rigault, Le général Abdallah Menou et la Dernière Phase de L'Expédition d'Egypte (1799-1801), Paris, 1911.
- 5 - Rousseau, M.F., Kléber et Menou en Egypte depuis le Départ de Bonaparte, Paris, 1900.

ج - الوثائق

١ - وثائق وزارة الخارجية البريطانية : تركيا

٢ - وثائق وزارة الخارجية الفرنسية : تركيا ، مراسلات

٣ - وثائق وزارة الدفاع الفرنسية : جيش الشرق

أ - المراجع العربية

- ١ - جاك تاجر ، حوكمة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر ، القاهرة ، ١٩٤٥ .
- ٢ - رءوف حبيب ، صور من تاريخ القبط ، رسالة مار مينا الرابعة ، مطبوعات جمعية مار مينا العجائبي ، القاهرة ، ١٩٥٠ .
- ٣ - شفيق غربال ، الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر في سنة ١٨٠١ ، القاهرة ، ١٩٣٢ .
- ٤ - عبد الرحمن الجبرتي ، عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، أجزاء ، القاهرة ، ١٢٩٧ هـ .
- ٥ - لويس عوض ، تاريخ الفكر المصري الحديث ، جزآن ، كتاب الهلال ، العددان ٢١٥ و ٢١٧ ، القاهرة ، ١٩٦٩ .
- ٦ - محمد فؤاد شكرى ، الحملة الفرنسية وظهور محمد على ،

فهرست

٥	مقدمة
٧	تمهيد
٩	أقباط مصر
١٣	الفرنسيون والأقباط
١٧	المعلم يعقوب حنا
٢٣	في عهد كليبر
٢٥	يعقوب قائد عسكريا
٣٣	في عهد منو
٣٧	قصيدة غير عصماء
٤٥	نهاية الحملة .. والرحيل
٥٣	قصة مشروع الاستقلال
٥٩	مسرحة بحرية
٧٥	نهاية الأحداث
٧٩	وبعد ...
٨٥	الملوك العميل
٩٩	ملاحق
١٣٥	مصادر البحث